السَّعادَة

كيف نجدها؟

سماحة آية الله
الشيخ عيسى أحمد قاسم

بسم الله الرحمن الرحیم

كلمة المجمع

إنّ تراث أهل البيت عليهم السلام الذي اختزنته مدرستهم وحفظه من الضياع أتباعهم يعبّر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلامية.

وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربّي النفوس المستعدة للاغتراف من هذا المعين، وتقدّم للأُمة الإسلامية كبار العلماء المحتذين لخُطى أهل البيت عليهم السلام الرسالية، مستوعبين إثارات وأسئلة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلامية وخارجها، مقدّمين لها أمتن الأجوبة والحلول على مدى القرون المتتالية.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ منطلقاً من مسؤولياته الّتي أخذها على عاتقه ـ للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها الّتي ضبّب عليها أرباب الفرق والمذاهب وأصحاب الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفياً خطى أهل البيت عليهم السلام وأتباع مدرستهم الرشيدة الّتي حرصت في الردّ على التحديات المستمرة، وحاولت أن تبقى على الدوام في خطّ المواجهة وبالمستوى المطلوب في كلّ عصر.

إنّ التجارب الّتي تختزّنها كتب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في هذا المضمار فريدة في نوعها ؛ لأنّها ذات رصيد علمي يحتكم الى العقل والبرهان ويتجنّب الهوى

والتعصب المذموم، ويخاطب العلماء والمفكرين من ذوي الاختصاص خطاباً يستسيغه العقل وتتقبله الفطرة السليمة.

وقد حاول المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام أن يقدم لطلاّب الحقيقة مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنيّة من خلال مجموعة من البحوث والمؤلفات الّتي يقوم بتصنيفها مؤلفون معاصرون من المنتمين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، أومن الذين أنعم الله عليهم بالإلتحاق بهذه المدرسة الشريفة، فضلاً عن قيام المجمع بنشر وتحقيق ما يتوخى فيه الفائدة من مؤلفات علماء الشيعة الأعلام من القدامى أيضاً لتكون هذه المؤلفات منهلاً عذباً للنفوس الطالبة للحقّ، لتنفتح على الحقائق الّتي تقدّمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع، في عصر تتكامل فيه العقول وتتواصل النفوس والأرواح بشكل سريع وفريد.

ونتقدَم بالشكر الجزيل لسماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم لتأليفه هذا الكتاب.

وكلّنا أمل ورجاء بأن نكون قد قدّمنا ما استطعنا من جهد أداءً لبعض ما علينا تجاه رسالة ربّنا العظيم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
المعاونيّة الثقافية

السعادة كيف نجدها؟

كلنا يعيش معنىً ارتكازيّاً للسعادة، وشعوراً لاهباً بالحاجة إليها، وهي تضع من نفس كل إنسان موقع الأمنية الأُولى والأكثر قيمة والأعز شأناً؛ لأنها الغاية من كل ما يتمناه ويطمح إليه. وما انشداده إلى أهدافه التفصيلية إلاّ من منطلق تصديقه بأدائها إلى سعادته. ومن وجد ما كان له أن يخطئها ؛ كيف وهي تملأ عليه وجدانه وتفعم شعوره وتمور بها نفسه وجوداً قائماً حاضراً عنده في الذات ؟!

وقد خلق اللّه تبارك وتعالى الناس للسعادة لا للشقاء، وللهناء لا للعذاب، ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[1]. فللرحمة والسعادة، والهناء والنجاح كان خلق من مضى ويأتي من الناس، وهم منشدّون من أعماقهم إلى هذا الهدف الفطري الذي قد يصيبون حقيقته الكبرى، وقد لا يصيبونه، وقد يتخذون السبيل إليه

(١) سورة هود: ١١٨ ـ ١١٩.

سبيلاً، وقد لا يتخذون ماهو سبيله لهم بسبيل، وإن خادعهم الرأي الكاذب، والشعور المنحرف بأنه كذلك.

ماهي السعادة ؟

السعادة لغة خلاف الشقاوة، والسُّعودة خلاف النُّحوسة[1].

وإذا أردنا تعمّقاً ؛ فقد تطلق السعادة على حالة التوافق بين ما تشتهيه النفس وترغبه، وبين ما تعيشه وتجده من أوضاع مادية ومتطلبات جسدية، والشؤون القريبة منها كمواقع الاجتماع والسياسة والثناء عند الناس.

وقد تطلق في مرتبة أرفع على الكمال الفعلي للذات الإنسانية في أبعادها المعنوية، وشعور الذات بهذه الفعلية من الكمال وهي على مراتب بين السعادتين:

الرؤية الأُولى: للسعادة ذات مدى قريب تعطي تركيزاً على كماليات الحياة المادية وزينتها وألوانها ومرائيها، وتنشدُّ إلى المنزل الفخم، والأثاث الجذّاب، والسيارة الأكثر شهرة ومتانة وحداثة، وتهتم بصحّة البدن وقوّته، وعلى الموقع الاجتماعي المتقدّم، والشهرة العريضة، والمركز السياسي المتفوّق، والحفاوة والتقدير،

(١) تاج العروس ٢: ٣٧٦.

وحسن المنظر، وجمال المرأى، واعتدال القوام، إلى ما إلى ذلك من أولاد وأزواج وعشائر وأنصار وأتباع وأملاك وترف وبحبوحة عيش.

وهذه الرؤية تستقطب من الناس أكثرهم، وتخلق في داخلهم سعار الشهوة للمادة إلى حد الجنون والصراع على المحدود من الكم المادي في الأرض حتى الاقتتال، وتقويض الأمن والسعادة بهذا المفهوم نفسه للناهب والمنهوب، ومن يَغلب أو يُغلب ! إذ الدنيا كلها لا تروي عطش مجذوب إليها، منكّب على زينتها، ثم وهي بيده لا يأمن فواتها، وأنّ أحداً لا يغلبه عليها، ولذلك يحرسها بكل ماله من حيلة، وبفكره وشعوره وكدِّ أعصابه، وتحسّباته ومواجهاته؛ فتستنزفه أكثر ممّا يستنزفها ويعطي من وجوده لحراستها أزيد مما تعطيه، وربما كان صريع همّها، وضحية الحفاظ عليها، وكم يؤرقه في صراعه من دونها هاجس الخسارة، ويقضّ مضجعه خوف الفقر بعد الغنى، والذلّ بعد العزّ، والضعف بعد الظهور والمنعة، وأنّ الآخرين يستلبونه ودنياه، يسرقون مجده وعزّه.

ولذلك يناصب ويعادي، ويستعبد ويسترقّ، ويُدخله حرصه على ما في يده، والزيادة غير المتناهية في

صـراعات تكـدّه وتحـط بقـواه، ويلفّـه منهـا القلـق والاضطراب، فيما يلفّ الآخرين بسببه.

أما **الرؤية الثانية**: فهي لا تركّز على أشياء الخارج وإن كانت لا تلغيها، ولا تتسمَّر عند الغنى المستعار، وإن كانت لا تهمله، وإنّما هي تعطيه من عنايتها بمقدار ما تقوم به حياة الأشخاص والمجتمعات ؛ تستلفتها الذات الإنسانية: داخلها ومحتواها ومكنونها في الأبعاد النورانية منها من روح وقلب وعقل وضمير. وتجد أنّ السعادة الحقيقية ليست تلك التي تنبني خارج الذات، وما يقيمه الإنسان على الأرض من وجود، وما يحتفظ به لنفسه من كنوزها من رصيد.

السعادة في هذه الرؤية مستوى من الكمال والخير والهدى والنورانية والشفّافية، تتوفّر عليه الذات ويحضرها في الشعور، ورؤية كونية عميقة واسعة صادقة، ونضج عقلي وتفتّح روحي، ورشد نفسي، وطهر قلبي، ونيّة صالحة وصفاء ضمير في حالة من الإنشداد الكلّي للكمال المطلق، والتعلّق الوَله المبتهج باللّه العظيم، الربّ الرحيم الكريم الحيّ الذي لَا يموت.

وهي غنى باللّه عمّن سواه، وأُنس به لا تشوبه وحشة، وثقة فيه لا يضعفها حادث، ورضى به لا يمازجه سخط، هذا والكثير من مثله من مشاعر الأرواح الزاكيات،

والقلوب الملهمات إذا أفعمت به الذات الإنسانية وجدت من لـذّة الحيـاة، وعذوبـة الوجـود، وسـموّ المعنـى ممـا لا تبلغه الكلمة، ولا يحوم حولـه الحـرف مـا يواقـع بهـا كنـه السعادة، ويسقيها من كأسها المترعة جمالاً وجلالاً وغبطة وحبوراً ما به رواء دائم، وبهجة لا تنقطع.

والسعادة بهذا المعنى لها آفاق وآفاق، ولا تقـف بهـا المديات إلا من خلال محدودية الإنسان، ومـا يمكـن أن يصل إليـه تحليقـه وتبلغـه انطلاقتـه، التـي لابـد أن تكـون محدودة بمحدوديته وإن اتّسع لها إطار، وامتدَّ منها مدى، وسما بها أُفق.

وبـرغم أنّ بابهـا مفتـوح للـسائرين، إلا أنّ المحظـوظ بالعروج إلى أقرب آفاقها قليـل ﴿**وَمَا أَكْثَـرُ النَّـاسِ وَلَـوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[1]. أما البالغ إلى بعيد من تلـك الآفـاق فهم في الناس صفوةٌ أقـل القليـل ﴿**وَمَـا يُـؤْمِنُ أَكْثَـرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ**﴾[2].

ومن شـأن هـذه النظـرة إلـى الـسعادة أن ترتفـع بمـن يعيشونها عن الذوبان في صـراعات الأرض وإن خاضـوها من أجل اللّه، وتنقذهم من سباق على الدنيا لهـا لا تمكينـاً

(١) سورة يوسف: ١٠٣.

(٢) يوسف: ١٠٦.

للحقّ من شأنه أن يجفّف منابع الهدى في الإنسان، ويسدّ عليه مطالع النور.

أصحاب هذه النظرة المتطهّرون بنورها وهداها لا يموتون كما يموت أهل الدنيا المولعون بها، حشرات لا يزيدون على طين وتراب، وروح هابطة متمرّغة في الوحل مثقلة به لا يرفّ لها جناح، ولا أحجار متيبّسة صلدة تجد مكانها في القعر مع وقود النار.

إنّما هُم إذا ما رحلوا من هذه الدنيا، رحلوا إلى ربّهم الكريم صالحين نقيّين أبراراً، وملائكة علّيين أطهاراً، يعبّون من كأس حياة أكمل، وينطلقون مع فضاءات من جلال، وآفاق من جمال، لا تتناهى بها حدود، ولا تنقطع بها نهايات.

فوارق تفصيلية

وهذا بعض تفصيل بعد إجمال في فارق بين السعادتين:

١ ـ تستمد النفس الشعور بالسعادة بالمعنى الأوّل من حجم أشياء تقع في يدها، وبريق لهذه الأشياء وتمكين من لذات جسد، ومطالب شهوات، ومن صفات بدن أو

معنى تتمتع بها الذات، ولا تمتنع على أهداف الحسّ ودوافعه أن تركبها إلى ما تريد، وتسخّرها لما تحاول كجملة كثيرة من العلوم وقدرة في اللسان وجرأة في الموقف وشهرة في النسب، وذلك من خلال ما تعطيه هذه الصفات من تفوق في الموقع بين الناس في الحياة وظهور عليهم، وما تفتحه من فرص للاستمتاع الجسدي، وما تتيحه من غزارة في لذات الحس وشهوات البدن.

بينما تستمدّ النفس الشعور بالسعادة بالمعنى الثاني من مستوى إنسانيتها، وفعلية كمالها وسموّها، وشرف دورها وموقفها، ومن صفات جمال وجلال معنويين، فيها من حيث القيمة الذاتية لهذه الصفات، والاستذواق لها في ذاتها. وهذه صفات تحكم حركة الحس وتوجّهها، وتأبى طبيعتها العلوية أن تكون أداة بيد الحس يسخّرها لإشباع نهمه، وتلبية أطماعه. من هذه الصفات العدل، والرحمة والإحسان والخلوّ من الأحقاد والحرص والشحّ، وأعلاها المعرفة الحقّة بالنفس والدنيا والآخرة، وفوق هذا كلّه معرفة الربّ، والثقة به، والاطمئنان إليه، والتعلّق برحمته، والانجذاب إلى جماله وجلاله.

٢ ـ إن كثيراً ممّا تنظر إليه النفس بأنه سرُّ سعادتها بالنظرة الأُولى أشياء تأتي اليوم وتفلت غداً، وكما تنتقل إلى الشخص تنتقل منه. خذ لذلك مثلاً من الصحّة والقوّة

وجمال المحيَّا والثروة والموقع والجاه. وغيرها كثير. أما ما تعتمده النظرة الثانية من أسباب للسعادة، فهي ألصق بالذات وأبعد عن العوادي، ما أراد الإنسان وصدق تعلّقه باللّه وتوكّله عليه.

٣ ـ الأُولى إذا دامت ماتت بموت البدن، وكان في ذلك نهايتها، والثانية لافناء لها على الإطلاق ما أذن اللّه، حيث أنها سعادة روح؛ والروح باقية يتوفّاها اللّه كاملة لتعيش في سعادة أو شقاء حسبما قدَّمت لنفسها في هذه الحياة. وما يذهب بالموت تراباً في التراب ويؤول أمره إلى تبعثر شديد فاحش إنّما هو عمارة الأبدان.

٤ ـ لا تتم الأُولى للنفس إلا حال غفلتها عن الحقائق والعواقب والتحوّلات والمصائر، وإلا فكيف تنعم نفس بشعور السعادة لمال، أو أهل أو جمال أو صحّة وقوّة تلتفت إلى أنّها مرغمة على خسارتها ولو من بعد حين وأنّها مهدّدة فيها كل لحظة. وحتى حال اللذة البدنية الفعلية الغزيرة التي تعطيها الممارسة لمشتهى من مشتهيات الطعام والشراب والجنس مثلاً لا يمكن أن تسعد لها نفس تبصر الحقيقة عند ذاك وتنتبّه إلى ما يؤول إليه المأكل والمشرب، وما تمثّله قمّة الممارسة الجنسية من ناحية حسيّة، وما يمكن أن ينتظر صاحب هذه اللذّة من مستقبل مأساوي في نفس أو أهل أو مال، وما يترصّده

من مرض وعجز وموت وشدائد. وأين موقع السعادة في مواقع سياسية واجتماعية، ربّما كانت الباب للندم والعطب وأعظم الكوارث؟!

أما الثانية فتقوم على أعلى درجات الصحوة والنباهة وحضور الوعي لحقائق الخلق والحياة والمصير، وبدايات الأشياء ونهاياتها وما يعتريها من تقلّبات. وفي ظلّ النظر الدقيق الواعي المستوعب ربّما تحوّلت اللحظة المرّة تمرّ بها النفس في هذه الحياة إلى لحظة مستذوقة بما ينتهي إليه تحمّلها من عاقبة حميدة، وبما يعنيه هذا التحمّل من ارتفاع بمستوى الذات وتأهلها للمقامات الرفيعة.

٥ ـ كثيراً ما يكون الطريق إلى الأُولى خسيساً منحطّاً يعتمد التدمير للآخرين ونهب سعادتهم، أما الثانية والطريق إليها شريف جليل مُعطاء، ينشر الطيب والهدى والصلاح، ويطلب ما استطاع إثراء حياة الآخرين ووجودهم.

٦ـ تتآكل الأُولى وتنحدر بتقادم الأيّام، وانحطاط قوى الجسد، بينما تشبّ الثانية وتترعرع على الأيّام مادام عقل وصحوة نفس وروح.

٧ ـ الباب للثانية مفتوح أمام إرادة الإنسان. أما الأُولى فيكثر عليها التهارش حتى يستبدّ بها في الكثير ذوو الناب والظفر متصلّبو الضمائر وموتى القلوب.

٨ ــ من يفقد السعادة بالمعنى الثاني، يبقى شعوره بالنقص دائماً وإن تبذخت بيده الحياة، ونُعم ملمسها من جانبها المادي في إحساسه، لأنّه لا يجد فيها الكفالة التامّة والقدرة على درأ المحذور، ولأنّه كلّما وجد أنّ ما يملأ يديه من دنياه شيء غيره، وأنه عظمة مُفارقة، عاد إلى نفسه فلم يجد منها ما يثري شعوره ويعزّزه بقيمتها، ويمدُّه بالثقة والاطمئنان، وما يبقيه كبيراً في ذاته مفصولاً عمّا أقام خارجه من بناءات على أرض وفي فضاء، ومفصولاً عن بُنية جسمه وفعّالياته المرتبطة ببقاء هذه البُنية وحاجات استمرارها.

ففقد السموّ الذاتي والسعادة المرتبطة به لا يعوّض عن فراغاته الهائلة في الذات، ولا يسدُّ النقص المترتّب عليه، والجوعات الناتجة عنه في أعماق الشعور، كبير ما في يد الإنسان من متاع الحياة وزينتها وفتنتها، وكل ذلك لا يطامن من قلقه المستقبلي، الذي يفرض نفسه عليه مهما حاول أن ينسى المستقبل أو يجحده من الأساس.

بينما تعالج السعادة النابعة من سموّ الذات باتّصالها بمصدر العطاء الكثير من مشكلات الفقد المادي ومعاناته، فإنّ قليل المادة كثير في النظر الذي لا يركّز على الشهوات، وإنّ درجة التحمّل للنفوس التي ارتقت في ذاتها يصغر معها الكثير من الأزمات التي تثقل نفوساً من أهل التراب. وكثير مما يعدّه أهل الأرض ضرورة، ويمثّل

فقده مشكلة حادّة لا يراه من استغنى في نفسه شيئاً ليحسَّ له بفقد إذا لم يكن.

٩ ـ الهمم التي يتطلّبها طريق السعادة الثانية لا تساويها همم قد تبلغ بأصحابها مبالغ متقدّمة من سعادة الأبدان. فهي تتطلّب دائماً هممـاً أكبر وعزائم أشدّ وأمضى وأكثر مداومة ومصابرة.

١٠ ـ لم يعرف من أحد عُلِم بأنّه من أهل سعادة الذات أن قد ضحّى بسعادته تلكَ النابعة من روحه وكمال ذاته من أجل سعادة يجدها بعض من خلال أشيائه ومقتنياته.

والذين يعلمون جزماً أنهم من أهل سعادة الروح هم أنبياء اللّه ورسله وأوصياء رسله، ولم يسجّل التاريخ عن أحدهم بتاتاً استبدالاً للذي هو أدنى بالذي هو خير، بينما يأتي الكثيرون كسحرة آل فرعون، ومصعب بن عمير، وآسية بنت مزاحم، وخديجة زوج الرسولﷺ، والحرّ بن يزيد الرياحي أمثلة حيّة، وشهادات صارخة على تضاؤل سعادة البدن أمام فرصة لسعادة الروح والرمي بالأُولى جانباً عند التزاحم.

وحينما تتمّ للروح سعادتها وتنفتح الفرص لسعادة الدنيا حسب النظر المألوف، تفقد هذه الفرص بريقها في

نفوس الكمّل وإن لم يكن تزاحم ؛ فلا تجدها تستهويهم، ولا تجد لهم بها أُنساً، ولا منها عن أُنسهم باللّه شاغلاً. وأكثر من كونهم على ترفّع وتنزّه منها تجدهم في نفرة من الدنو منها واستيحاش، وعليك أن لا تفتقد الشاهد الناطق بذلك. وأمامك حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وعلي أمير المؤمنين عليه السلام اللّذين كانت الدنيا تتمرّغ على قدميهما الشريفين فلم يجدا إلا أن يدوساها مشغولين عنها بعطاء وفيرٍ غزيرٍ كبيرٍ هانيء من اللّه الحميد المجيد في الذاتين الكريمتين من صنعه البديع.

١١ـ تأصّل المعنى الأول للسعادة في النفوس مقوّضاً للمجتمعات، حيث إنّ الأرض لا تشبع نهم طامع في الدنيا باحث عن معناه من خلال أشيائها، فلابدّ من تصارع وتآمر وتقاتل بين الأفراد والجماعات والأقوام على أسباب المعاش والظهور والقوة والترف والبذخ إلا أن تقهر القوّة، وتسكت السطوة، ويكون هناك مستكبرون مترفون، ومستضعفون محرومون، فيسكن الصراع فترة في مذلّة وفساد ليعود أُخرى عند نقطة من التحوّلات.

وتأصّل المعنى الثاني للسعادة في النفوس بلا معاداة للدنيا قاعدة لبناء مجتمعات التعاون والتضامن والتكامل والإيثار. فنظافة النفس من مشاعر الحرص والشحّ بالدنيا

وتحلّيها بالثقة والقناعة والرحمة؛ ممّا ينتجه سموّ الذات، والتعويل على اللّه منبت للترفّع عن سرقة جهود الناس وعطاء عرقهم للتبذّخ من جهة، وللنهوض بحاجات المحتاجين ممّن يمنعهم مانع من الكسب من جهة أُخرى. وكم سيكون في الناتج العام الاقتصادي من فائض لو طلب الناس حدَّ الكفاية لا الكفاف بلا ترف ولا سرف ولا إهدار للثروات بما يهدر الصحّة والكرامة والأمن ويحطّم الأخلاق، ويثير الفساد والرعب في الأرض؟

الإسلام والسعادة:

الإسلام كلمة اللّه خالق الإنسان روحه وبدنه، فهو للروح والبدن، ولا بخس فيه لبدن كما لا بخس فيه لروح، ولا غفلة ولا إهمال منه لحاجة لهذا أو ذاك، ولا تضييع في منهجة الإسلام لبُعد من أبعاد الإنسان، ولا تغييب لمقتضى من مقتضيات ذاته، على أنه لا يتوقّع أن نجد متقدّماً متأخراً في هذه المنهجة، أو متأخّراً مكانه متقدّم.

والإسلام في نظامه العبادي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وكل أنظمته الأُخرى الحكيمة الرصينة العادلة، منظومة متناغمة متناسقة تنشدُّ إلى رؤية

كونية دقيقة علمية لولا دقّتها واستيعابها وديمومتها لما كان للكون استمرار وانتظام.

هذه المنظومة الرائعة المتلاقية تنتهي إلى تخريج الإنسان المتكامل، الذي يتوفّر على أوضاع حياتية ناجحة، ومستوى إنساني متفوّق، ليعيش هناءة الحياة في بُعدها الأرضي بأقصى ما تسمح به طبيعة الحياة على الأرض، وإن كانت تمثّل دورة امتحان وجهد وجهاد ومكابدة أكثر ممّا تمثّل دورة للنعيم وأجواء مفتوحة على الراحة والاستمتاع العريض، ويعيش هناءة الحياة ببعدها السماوي بأعلى درجة تطيقها قابلية الإنسان لأن يخطو في اتّجاه الكمال. على أنّ الهدف الأسمى لمنظومة التكامل ـ الإسلام ـ هو أن ينشدَّ بإنسان الأرض إلى السماء، ويعطي قابليات روحه عروجاً إلى اللّه سبحانه رشداً بعد رشد، ونقاء إلى نقاء، وطهراً فوقه طهر، وشوقاً يتّبعه شوق، ومعرفة تنضاف إليها معرفة، وتخلّقاً في نماء بخلق اللّه العظيم ما وسع هذا الإنسان على محدوديته وتناهيه، وحينئذ ترى الذات الإنسانية نفسها وجوداً كريماً، وعطاءً ثرّاً من عطاء اللّه، وشعاعاً لألاءً من فيض نوره الذي لا يحدُّ، فلا تقارف سوءاً، ولا تتعاطى باطلاً، ولا تميل إلى ظلم أو فساد، ومن نظرها إلى أنّها قبسة نور من فيض اللّه العظيم تشرف وتطلب سموّاً أكثر، وتحليقاً أبعد، وتنوّراً

أكبر، فتشغلها رحلة الكمال عن الإسفاف والإسراف والإيغال في لذائذ الحيوان. ومن وعيها بكونها في هداها ومعرفتها وأشواقها الجليلة وطموحاتها النبيلة قبسة لا تنطفئ باللّه ومدّده تغني وتقي وترضي.

نعم إذا كان أكثر من سعادة، وقبلنا أن تكون سعادة لبدن وسعادة لروح، فلا ريب أن سعادة البدن في الإسلام وسيلة، وسعادة الروح هدف، وما كان وسيلة وطريقاً يحافظ فيه دائماً على صفة طريقية دون أن ينقطع عنده النظر وتنتهي به المحاولة، ولنطالع رأي الإسلام في أمر السعادة للإنسان في كل من الكتاب والسنة:

أ ـ على مستوى الكتاب:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

﴿...وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾[2].

الآية الأُولى: تجعل عبادة اللّه، ومعرفته، والإنشداد إلى عظمته، وانطلاقة الروح على المدى اللا محدود إليه، وفي الفضاءات اللامتناهية النورانية في اتّجاه كماله المطلق هدفاً لخلق الإنسان، ومعرفة العبد بربّه، وشعوره

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

بأنّه في كنف رحمته، وفي قلعة حُماه، وثقته برفده، ورؤيته لعظيم من جماله وجلاله، سعادة ما نالها عبد من عباد اللّه إلا وأنسته ما عداها، وكان له منها غنىً عن كل ما تمنّاه الآخرون.

والآية الثانية: تعالج أمر الضرورات البدنية وحاجات الحياة المادية ولذائذها فتفتح الباب لإشباع هذه الحاجات حتى لا يكون من جوعة البدن وعراه وآلامه ومتاعبه الثقيلة معيق للكثيرين عن الإنطلاقة الروحية في رحلة النور والهدى والكمال. ولذلك تختار الآية الطيّبات التي لا تتعاكس وشروط الرحلة المباركة ومقتضياتها، ويحرّم الخبائث التي تترك آثاراً سلبية ضارّة على توجّه الروح وحركتها الصاعدة، وتلقي عن الإنسان جانباً كلّ ما يثقل حركته إلى اللّه، ويحدّ من قوة اندفاعه وتحليقه الروحي في أجواء الصفاء والنقاء والشفافية والطُهر في المسارات العمودية المفتوحة اللا محدودة في اتّجاه معرفة أكمل وأوفى بخالقه العلىّ العظيم، وربّه الرحيم الكريم.

وانظر قوله تعالى: ﴿**كُلُوا من طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فيه فَيَحلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْه غَضَبي فَقَدْ هَوَى**﴾[1] فإن المستظهر أنّ موضوع الآية هو

(١) سورة طه: ٨١

خصوص الطيّبات من الرزق فهي الرزق المعني لها، لأنّ ما كان من الخبائث وممنوعاً عنه لا ينسجم بأن تعبّر عنه الآية ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولو بنحو الإطلاق الذي يشمله وما كان طيّباً، فلا معنى لكونه رزقاً لنا ولا يؤذن فيه، وقرينة الإمتنان لا تناسب الخبيث كذلك، وعليه يستظهر من الطغيان المنهي عنه في الآية هو الاستغراق في الطيّبات، وفصلها عن وظيفتها الطريقية، وتحويلها إلى هدف تقيم عليه النفس، وتنشغل به، وينقطع همّها عنده، وتجد أقصى لذّتها وسعادتها فيه.

وبيّنت الآية الكريمة أنّ هذا ينتهي إلى الهَوِيّ والسقوط في المستوى الإنساني، وهو الموضوع للهَوِيّ في النار والخلود فيها. نعم بالإنغماس حتى في الطيّبات من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب والمنكح إلى حد التجمّد عندها والانقطاع إليها بلا معرفة بالنفس وبالرب، وبلا فاعلية روح ولا عبادة يخسر الإنسان إنسانيته، وتفشل حياته عن الوصول إلى غايتها السامية وهدفها الكبير. وهذه هي نهاية عبد وقع في غضب اللّه، واستحقّ خذلانه بما رضي به من التلهّي بلذّات الأرض والإقامة عندها منصرفاً عن بناء الروح،

وتربية الذات تربية تضعها على طريق كمالها وهدفها الإلهي الأصيل.

إنّ الواضح من كتاب اللّه الكريم أنّه لا يناهض فكرة الاستمتاع بالطيّبات والانتفاع البدني بخيرات الأرض، وخلق الأجواء المادية المناسبة لراحة النفوس، وتخفّفها من ضغط مشكلات المعاش والتخلّص من حالة اختناق الدوافع وكبتها، بل الإسلام بقرآنه وسنّته يقيم من النُظم الحياتية في ميدان العمل والاكتساب والاقتصاد والزراعة والصناعة ما يؤدّي إلى الرخاء وسعة العيش عند الفرد والمجتمع، ويدفع بعجلة الاقتصاد إلى الأمام حتى تكون أُمّة الإسلام المكتفية الغنية التي يحتاج إليها الآخرون دون أن تحتاج للآخرين، وقد شرّع المسألة الجنسية وفتح من الدروب الحلال في مجالها، وأوجد من التمهيدات والتسهيلات والأجواء النفسية والاجتماعية ما يجعلها مسألة محلولة في الإسلام بالكامل بلا فوضى ولا أزمات أو تشنّجات أو اختناقات تؤدّي إلى التحطّم أو الانفجار. وكمواجهة صريحة لخط الكبت وتعذيب الجسد أو حرمانه يأتي مثل قوله عزّوجلّ: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّه الَّتي أَخْرَجَ لعبَاده وَالطَّيِّبات منَ الرِّزْق قُلْ هيَ للَّذينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ**

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] فلا استقذار للطيّبات من مأكل وملبس ومشرب ومنكح ومسكن وكلّ ما تحتاجه حياة الناس في الأرض، بل يقف الإسلام في مصدره التشريعي الأوّل في وجه من يريد أن يؤسّس للحرمان، ويفرض رهبانية ما بها من سلطان ولو بتحريم شيء واحد من الطيّبات. ومع الطيبات الزينة وبإضافتها إلى اللّه سبحانه يبعد بها النصّ الكريم عن أن تكون طريقاً لفساد أو تحلّل أو استغلال سيّئ. وإنّما هي ذات دور إنساني أُسري واجتماعي بنّاء لتنمية العلاقات، وإيجاد المودّات، وإضفاء مسحة من الجمال والروعة على الأشياء بما يُثير البهجة ويرتفع بمستوى الأذواق ويريح النفوس في إطار ما يحل وينفع.

والمنهج الإسلامي الشامل وهو يستهدف تكميل الإنسان في دورة الحياة والبلوغ به إلى أقصى درجات ما يتّسع له وجوده من كمال لا يسلك به لذلك طرقاً مرهقة معادية لبهجة الحياة والاستمتاع بطيّباتها واستذواق الجمال فيها، بل يصنع له من أجواء الحياة المريحة الميسَّرة، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والخلقية ما يكون من مرونته وتناسبه مع متطلّبات الإنسان

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

وسدّ جوعاته ما يسهّل عليه الدرب لبلوغ غايته الروحية الرفيعة، ويسلك به إلى مرتقاه الإنساني عبر أيسر الطرق وأسرعها إيصالاً وأكثرها ملاءمة لكلّ ما يزخر به وجوده من أبعاد. وأنت ترى كيف دفع الإسلام حين تولّى تربية المجتمع على طريق أهدافه الإلهية القويمة على يدّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله، بالأوضاع الإنسانية والمادية البنّاءة كلّها إلى الأمام؛ وصولاً إلى غرض التربية الروحية العالية، ولم يسلك بالمجتمع المسلم والفرد المسلم لهذا الغرض الرسالي الأساس طريقاً يعادي الحياة ونموَّها وطيّبات الدنيا وزينتها.

وأكبر نضج روحي وإنساني يتوقّع أن يبلغه إنسان هذه الأرض هو زمن الظهور للقائم عجل الله تعالى فرجه الشريف، وهو الزمن الذي لم تكثر خيرات الأرض وتعمُّ يوماً بقدر ما تكثر وتعمّ فيه. فيوم الإسلام ليس يوم ضيق وفقر وتقشّف ورهبنة، ويوم حياة الروح والقلب والوجدان والضمير ليس يوماً لموت البدن وذبوله وانحطاط قواه.

نعم قال اللّه سبحانه: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ**

(١) سورة الأعراف: ٣١.

الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

فيوم الإسلام هو يوم حياة الروح والبدن، يوم النضج الإنساني، والتقدّم المادي، يوم الخيرات والبركات في الأنفس والأموال والأوضاع، وليس يوم جاهلية ولا ضلال، ولا ظلم ولا استغلال، ولا فقر ولا شحّ، ولا يوم بهائم، همُّها علفها، تتقمّم حتّى تقتلها بطنتها، وتذهب ضحية سرف مأكل ومشرب ومنكح، بلا خُلق وقيم وإيمان. ويوم الإسلام ليس من أيّام العُري والفساد والفواحش والتبذّل والسقوط، ولا من أيّام الكفر والشرك والانحطاط العقلي والروحي والتيه والضياع، وغياب الفطرة وموت الضمير.

ونجد الناس يوم القيامة فيما يقرّره القرآن الكريم: فريق سعادة وفريق شقاء، ذاك خالد في نعيمه، وهذا خالد في العذاب ﴿... **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ* فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ* خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ* وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا**

(١) سورة الأعراف:٣٣.

دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ ما شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ﴾[1].

فريق الشقاء، يوم القيامة إنّما شقي لسقوطه الروحي في الحياة الدنيا بانفصاله أيّامها عن اللّه وخلوده إلى هواه وشيطانه وزينة الأرض. وفريق السعادة، يوم القيامة إنّما سعد لسموّه الروحي في هذه الحياة بتعلّقه أيّامها باللّه، وركونه إلى الدليل من عقله والهدى من ربّه، والاستعانة بالطيبات على تكميل نفسه والإعداد لآخرته. فكلٌ من سعادة الآخرة وشقائها مصنعه الأرض في الحياة الدنيا ومن خلال إرادة الإنسان المخيّر بين الخلود إلى الأرض، والصعود بكيانه الإنساني ومضمونه الروحي إلى السماء... بين الاستقامة والانحراف... بين الإيمان والكفر... بين الطيبات والخبائث. والقائمة السوداء من هذه المتقابلات لا تُجاري القائمة المشرقة منها في تقديم السعادة في الدنيا للإنسان. وإن قدّمت لذائذ حيوانية سرقةً من بعض مع فساد كبير في الأرض، فالثمن عذاب مقيم في الآخرة بما تحدثه من تصفية إنسانية وروحية لأصحابها وهم كثير. أمّا القائمة المشرقة فهي تتّخذ من سعادة الدنيا طريقاً إلى سعادة الآخرة، وتصوغ بمنهجة الإسلام إذا

(١) سورة هود: ١٠٥ ـ ١٠٨.

حكمت سعادة متّصلة ترافق الإنسان في حياته ولا تودعه يوم موت، ولا يوم بعث ولا نشور.

إن الانكباب على الدنيا والانصراف عن اللّه عزّ ذكره لا يحقّق سعادة دنيا ولا آخرة، فإن السعادة تتطلّب شعوراً بالأمن على الحاضر والمستقبل وثقة من الفاقد بالذات، يتدفّق الفيض من الغير الغني بذاته، دعماً مستمراً، وحماية دائمة، وأكبر غنى في الدنيا لا يوفّر لصاحبه ذلك ولا الجيوش ولا العشائر والمواقع. وأي غنى بيد إنسان، وأي قوة وصحة، وأي رصيد مادي أو معنوي مما يؤتاه، يعيش هم الاحتفاظ به وحراسته وتوقع استلابه منه فيسهره ويضنيه ويرهق أعصابه من دون أن تفارقه حالة الخوف والترقّب والتحسّب لطروّ الأزمان؟ وكفى بهم المرض وعجز الشيخوخة وهمّ الموت منغصّاً للذات الحياة لمن لا يجد فرصة غير فرصة الحياة ولا عوضاً عن متاعبها وما يلمّ به فيها من الأزمات. وإذا كان عمر الآمال سنوات متلاشيات يعقبها عدم أو عذاب؛ فهي آمال صفراء بئيسة قصيرة حقيرة لا تحتضن السعادة ولا تنبت إنشراحاً ولا مسرّات إلا أن يكون دوّاراً أو غيبوبة تنسي الحقيقة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ

كُنتُ بَصيراً* قَالَ كَذلكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسيتَهَا وَكَذلكَ الْيَوْمَ تُنسَى* وَكَذلكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمن بِآيَات رَبِّه وَلَعَذَابُ الآخرَة أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[1] فهي خسارة حياتية.. خسارة وجود. عيشة ضنك، ومنقلب سوء لمن ينسى اللّه، ويكبّ على علف ومرعى، كما تكبّ مربوطة وسائمة.

ب ـ على مستوى الحديث:

في المأثور عن أهل بيت العصمة عليهم السلام نور من نور الكتاب وهدى من هداه، وكلماتهم مرآة تُربك أفكار الكتاب ومفاهيمه ورؤاه وطروحاته. فلتكن لنا وقفة مع الحديث في المحاور التالية:

١ ـ سعادة الدنيا:

«**ثلاثة هي من السعادة: الزوجة المواتية، والولد البارّ، والرزق يرزق، معيشة يغدو على صلاحها ويروح على عياله**»[2]، «**من سعادة المرء المسلم أن يكون متّجره في بلاده، ويكون خلطاؤه صالحين، ويكون له ولد يستعين به**»[3]، «**إنّ من سعادة المرء المسلم أن يشبهه ولده، والمرأة الجملاء ذات دين، والمركب الهني،**

(١) سورة طه: ١٢٤ ـ ١٢٧.
(٢) بحار الأنوار ١٠٠: ٥ ح١٨.
(٣) المصدر السابق: ٧ ح٢٧.

والمسكن الواسع»[1]، **«من سعادة المرء أن تكون صنايعه عند من يشكره ومعروفه عند من لا يكفره»**[2].

تتحدّث الكلمات عنهم عليهم السلام عن أمثلة من زوجة جميلة موافقة ذات دين، ومركب هني مريح، ومسكن واسع، وصلاح معيشة، ومكسب مستقر، ومن ولد بارّ، وخلطاء صالحين، وجوّ اجتماعي مناسب ممّا يعطي راحة بال وهدأة نفس وانشراح خاطر هنا في الحياة، وتعد ذلك من السعادة المطلوبة المرغوبة التي تدفع إليها.

وإذا راجعت الإسلام في أنظمته كلّها وجدت هذه الكلمات منهم عليهم السلام ترمز إلى مضامين تتكفّل تلك النظم بتحقيق مصاديقها على أرض الواقع، بل إنّ هذه الكلمات نفسها إنّما جاءت لتؤدّي دورها في إطار النسيج العام الإسلامي لتحقيق واقع السعادة في الأرض، بما تطيقه ظروف الحياة عليها، فهي مؤشرات عامّة لخلق المناخات الفكرية والنفسية والاجتماعية، التي تحتضن هذا اللون من عوامل السعادة في مجتمع تسوده روح التقوى وأمل الآخرة. على أنّ الإسلام كما تقدّم لا يحاول أن يقيم للسعادة في الأرض كياناً مفصولاً عن قضية الإيمان والقيم الرفيعة، والتربية الإلهية لذات الإنسان، فإنه شأن لا

(١) بحار الأنوار ٦٣: ١٤٩ ح٣.

(٢) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٣ من غرر الحكم.

يلتقي ورؤيته الكونية الأصيلة وعلمه الدقيق بالإنسان، مع كونه يرى أن مثل هذه المحاولة أمر فاشل، فإنّ بقاء الجوعة الروحية في الإنسان، وما يحدثه التوجّه المادي الصرف من فوضى في حياة المجتمعات، ومن طموحات جنونية في نفوس الأفراد والجماعات تجاه المادة بما تعجز الأرض عن تلبيته، ويمثّل ملهاة مضلّة مُغوية للإنسان؛ كاف لأن يحرم من السعادة من طلبها عن طريق النّهم المادي المفتوح وإشباعه، كيف وهو كلّما تنامى هذا النّهم داخله احترق به؟ أو كل ما تسبّب إليه من اجتماع مال وجاه وقوة وسلطة بيده زاد من مستوى همّه وقلقه والحسرة على مفارقته ؟!

إنّ ما لا شكّ فيه هو أنّ المنهج الربّاني يأخذ المجتمع الإنساني إلى مُنجاة من الفقر والمرض والخوف والجهل والكسل والتمزّق، وعن كل العوائق التي تستهلكه في دوّامة همومها ومآسيها عن تكميل ذاته، وصناعة مستواه الإنساني الكريم، وتستنفذه دون أن يحقّق غاية حياته من سموّ الروح وعظمة المعنى، كما نأى به عن حياة الضنك والشحّ والمعاناة في أوضاعه المعاشية والمادية عامّة، حتى لا تضيق به الحياة ولا تتحوّل أيّام دنياه إلى مأساة وطريقه إلى اللّه سبحانه إلى طريق شائك. الأصل أن يعيش أوضاعاً موسّعة تُلمسه لطف اللّه به في كلّ جنبات الحياة،

على أن لا يكون له من تمدّد الثروات والغنى الفاحش، ويبطره ويلهيه عن الغاية القصوى من معرفة اللّه وعبادته، ويجعله ركّاضاً وراء سراب العزّة والعظمة والخلود الكاذب في المال، ومظاهر الزينة السطحية، ومستنقع الشهوات.

وقد يأتي تدفّق في النعم استدراجاً لا رحمة لقوم لا يفقهون ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمدُّهُم به من مَّال وَبَنينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾[1] كما قد يأتي النقص فتنة ودرساً من دروس الواقع المرّ لتتجلّى من خلاله الأحجام والأوزان، وتنكشف لذاتها ولغيرها الذوات في مجتمع الإنسان: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْء منَ الْخَوْف وَالْجُوعِ وَنَقْص منَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالَّثمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾[2].

وهاتان ظاهرتان تكوينيتان تحدثان بتقدير إلهي حكيم تأديباً، أو تربية حسب مقتضيات أوضاع المجتمع البشري في الحكمة الإلهية المتعالية، والتحوّلات التي تعرض عليه من انحراف عن خط اللّه عمداً أو غفلة انحرافاً يمسُّ التصورات والمشاعر والتوجهات وأنماط السلوك والتعامل. وهذا الدرس التكويني أو ذاك إنّما يعمل على ردّ المجتمع البشري لما يستهدفه النظام

(١) سورة المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) سورة البقرة: ١٥٥.

التشريعي من تركيز الأوضاع بالصورة التي تناسب سعادة الإنسان في الحياة وتجلّيها في حدِّها الأكمل في الآخرة.

٢ ـ سعادة الآخرة:

«عند العرض على اللّه سبحانه تتحقق السعادة من الشقاء»[١].

«سعادة الرجل في إحراز دينه والعمل لآخرته»[٢].

«أفضل السعادة استقامة الدين»[٣].

«ما أعظم سعادة من بوشر قلبه ببرد اليقين»[٤]!.

«إنّ حقيقة السعادة أن يختم للمرء عمله بالسعادة، وإنّ حقيقة الشقاوة أن يختم للمرء عمله بالشقاء»[٥].

مرّت نصوص تعدّ أشياء ماديّة كالدار الوسيعة والمرأة الجميلة والمركب الهني من السعادة، ومرّ أنّ منظومة التشريعات الإسلامية، والنظام الإسلامي الشامل لا يبني سعادة الآخرة على معزل من الدنيا، أو من خلال تحويلها إلى شقاء وجحيم، أو صحراء جرداء، وإنّما يطلب للإنسان سعادته الأُخروية من خلال عمارة الدنيا

---

(١) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٤ عن غرر الحكم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ٤٦٥.

(٤) المصدر السابق.

(٥) بحار الأنوار ٦٨: ٣٦٤ ح٣.

وأوضاع معتدلة هانئة فيها؛ فيكون للإنسان منها عون على دربه الصاعد إلى الكمال.

وإذا طالعنا المجموعة الأخيرة من النصوص؛ وجدناها بين ما يفضّل سعادة الدين والآخرة على سعادة الدنيا «**أفضل السعادة استقامة الدين**»، ومنها ما لا يلتفت إلى سعادة الدنيا ولا يعيرها نظراً بالقياس إلى سعادة الآخرة، وكأنه لا وزن لها بإزائها للفارق الهائل بين الاثنين: «**سعادة الرجل في إحراز دينه والعمل لآخرته**»، «**إنّ حقيقة السعادة أن يختم للمرء عمله بالسعادة، وإنّ حقيقة الشقاوة أن يختم للمرء بالشقاء**».

إنّ هذه المجموعة تجعل قيمة السعادة، أو حقيقتها في المحتوى الروحي الحي والمضمون المعنوي المتقدم الذي يتحقّق لذات الإنسان في هذه الحياة بجهد وجهاد من توفيق اللّه. أما ما نسمّيه سعادة من لحظات بشاشة وانشراح للنفس لملاءمة الأوضاع المادية مع مشتهاها؛ فهي لا تعبأ به ولا ترى له شأناً يكون به من حقيقة السعادة، ولو شملنا هذه الحقيقة لتلك اللحظات العابرة غير الخالصة تماماً من المكدّرات لو تم الإلتفاف، فهي مستوى أولي بسيط منها.

السعادة بهذا المنظور روحي محلّق، ومتانة في الذات الإنسانية من حيث بناؤها المعنوي، واستيعابها للمعرفة

الحقّة وتنوّرها بها، وتحليها بانعكاساتها في الشعور والنية والعمل، وتحوّلها مرآة تعكس من جمال وجلال لا منقوص ولا محدود للكامل المطلق المتعال محدوداً بما يتأنّى لها في نموّها وتكاملها في إطار الإمكان المحدود أن تعكسه.

وتحوّل هذه الكلمة الثرّة «عند العرض على اللّه سبحانه تتحقّق السعادة من الشقاء» ساعة تبيّن السعادة من الشقاء على ساعة العرض على اللّه سبحانه، والوزن الحقّ للأنفس من بارئها فيما انتهت إليه فعلياتها ومضامينها في الخير والشر والصلاح والفساد بما كسبت أيديها؛ فإنّه لا يعبر السعادة بمعناها الداني نظراً إلا بلحاظ عاقبتها وما تؤدّي إليه في اليوم الآخر؛ يوم تجلّي الأرواح على واقعها، وبروز الذوات بأوزانها وأقدارها الفعلية الصادقة. يومئذ يظهر أنّ سعادة الغنى والصحة والشهرة والرفاه وكثيرٍ من هذا القبيل في الدنيا سعادة حقّاً أو شقاءً فيما تؤول إليه الأُمور، ويكون للدوام، وفيما هو واقع الذات لهذا الإنسان ولذاك، ومستوى له من شأنه السعادة أو من شأنه الشقاء في الأبد، ويظهر أنّ ضيق المعيشة وشحّها، واعتراء الأمراض، وانغلاق فرص من فرص اللّذّة، وتنكّر الآخرين، وغلبة الظروف ممّا شقاء في هذه الحياة خير

واقع على المدى البعيد على أذاه الحاضر، أو شرّ فيما هو المردود على صناعة الذات، وتبلور النفس، وفيما يستقبله الإنسان كذلك بعد حين، وفيما هو باق لا يعتريه فناء ولا يعرف النهاية. أو لا يصح أن يعدَّ شقاء اليوم سعادة إذا كان ما يعقبه من خير للذّات، ومن مستقبل كريم يفوق بسعادته وهناءاته ولذا ذاته على كل مستويات الذات وأبعادها آلام هذا الشقاء ببلايين المرات بل بما لا يعدُّ ويحصى ؟! على أنّ الطريقة التي تعتمدها المنهجة الإسلامية كما تقدّم ليس أن تعذب في الحياة، لتعطي عن ذلك ثمناً من سعادة الآخرة، وإنّما هي المنهجة التي توصل سعادة الآخرة بالدنيا وتهيّأ بسعادة الدنيا لسعادة الآخرة، وإن كانت ملابسات الحياة وظروفها والتضادُّ بين الأحياء فيها والانحراف عن المنهج الحقّ في مجتمعاتها قد يتسبّب في حرمان شخص ومتاعبه في الدنيا، وهي دار التربية والامتحان، فيعتاض من فضل ربّه عن حرمانه ومتاعبه نعيماً مقيماً، وملكاً كبيراً، ومقاماً كريماً وسعادة أبدية في الآخرة إذا استقام على الدرب الذي فتحه اللّه لأوليائه؛ لأن يصعدوا بقلوبهم وأرواحهم إليه رغم المصاعب والأزمات المترصّدة على الدرب.

تعارض محلول:

أساساً وكما تقدّم لا تعارض بين حاجات البدن والروح... بين سعادة الدنيا والآخرة في الإسلام، بل لا تتم سعادة في الدنيا مع خواء روح، ويستعان لسعادة الروح بسعادة البدن. ولكن من ناحية الواقع الخارجي توجد حالات تتعارض فيها مطالب البدن مع حاجات الروح، وتنعمُّه مع كمالها.

وهذه مجموعة من كلمات وردت عن أهل البيت عليهم السلام تقدّم الرأي في هذه الحالات:

«**أسعد الناس من ترك لذّة فانية للذّة باقية**»[1].

«**إنّ سعادة الناس في الدنيا من عدل عمّا يعرف ضرّه، وإن أشقاهم من اتّبع هواه، فاعتبروا واعلموا أنّ لكم ما قدّمتم من خير، وما سوى ذلك ودّدتم لو أنّ بينكم وبينه أمداً بعيداً**»[2].

«**أسعد الناس بالدنيا التارك لها، وأسعدهم بالآخرة العامل لها**»[3].

---

(١) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٤ عن غرر الحكم.

(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٣٥٥.

(٣) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٥.

ثانية في هذا المقام الواحد يؤكّد أنّ الإسلام يقيم نظاماً شامخاً للموازنة بين الدنيا والآخرة، ويعمرها وصلة لإعمار الآخرة، يقيم نظاماً يوفّر لأبناء الدنيا الاكتفاء، ويسدّ عنهم أبواب الفاقة، بما يثير فيهم من روح العمل، ويلاحق منهم روح الكسل والطمع والجشع، ويشيع بينهم علاقات العدل والإحسان، ويبنيهم على الأخاء والتراحم والمودّة، ويجفّف مادة البغي والعدوان، وينتصف للمظلوم من الظالم، ويأخذ بموازين القسط في توزيع الثروة ناتجاً ومواد أوّلية قبل ذلك، ويضخّ في النفوس معاني تثري الذات، وتشبعها غنى من داخلها فتسمو وتعفّ، ويسرج مصباح العقل حتى يكون النور الوهّاج، والرؤية المديدة، والإدراك المصيب، ويطلق قوى الروح لتسبح في عالم الملكوت، وتسبّح مولعة بحمد اللّه.

نظام الإسلام تتناغم فيه مقرّرات المادّة والروح، وتتلاقى على مصلحة البدن وبنائه، ورفعة الرّوح وسموّها، وهي إذ تطلق الروح محلّقة كريمة تزكو بها حياة البدن وتطهر وتطيب.

فالإسلام لا يعيش مشكلة الانغلاق على الروح دون البدن، أو على البدن دون الروح، ولا يعيش مشكلة الانقسام والتهافت بين هذه الجنبة والأُخرى من نظامه، فلا

صراع في النظام الإسلامي المتكامل داخل النفس، ولا على الأرض بين بدن وروح. ولكن الصراع بين شطري الكيان الإنساني أزمة قائمة في نفس الإنسان وحياته من منطلق الانحراف عن الإسلام، والأنظمة الأرضية القاصرة والديانات المبتدعة التي تملك على الكثير من تفكيرهم، وتستحوذ على تلوين مشاعرهم وطموحاتهم وتوجهاتهم، وهذه التيّارات تخلق أوضاعاً صعبة على الأرض، وتضيق الفرص أمام من يشعر بآدميته في بُعديها الثابتين ومتطلباتهما لو أراد أن يعطي لكل بعد حقّه، فيضطر أنّ يصبر على أحد فقدين: فقد يمسّ منه روحه، وفقد يمسّ منه البدن. فماذا إذا فرض على الإنسان هذا الواقع المرهق من فعل الأنظمة الأرضية والديانات المخترعة والانحراف بدرجاته المختلفة عن الإسلام ؟

قد يكون ما يزاحم الآخرة من الدنيا لذّة على كونها فانية غير مقوّمة للحياة، وقد تكون مقوّمة، كما أن المزاحم من الآخرة أصل السعادة فيها على تقدير، ودرجة من درجاتها العُليا على تقدير آخر. والتقديم دائماً في الكلمة الأُولى من الطائفة الأخيرة للآخرة على الأُولى، فعلى تقدير أن يدخل المتمتّع بالدنيا المحروم من الآخرة تحت السعادة ولو مجازاً، فإنّ سعادته لا تضارع

شيئاً من سعادة الآخرة ولا تقاربه. فالخيار عند العاقل مع التزاحم لا يحتاج إلى تأمّل، فإنّه وإن لم يكن أطلب للمخلوق الحيّ في الدنيا من أن تبقى حياته له، ولكنّها لو تطلبت آخرته ثمناً فإنّ كلمة الدّين والعقل مجمعة على أن لا تكون الآخرة ثمن الأُولى، بل تقدّم حياة البدن ثمناً لحياة الروح، ويوم الدنيا وهو فانٍ حفاظاً على يوم الآخرة الذي لا يفنى.

والكلمة الثانية في هذه الطائفة من الكلمات عنهم عليهم السلام تتحدّث عن فئة في الناس بلهاء، لا يعدلها أحد في ماهي عليه من سفه الاختيار حتى لتدرك أنّ الشقاء الأبدي في ما يوافق الهوى ويغذّي نهم الشهوة من طرق حرام، فتنساق مع الهوى إلى الهاوية على علم لا تتماسك عن عقل ولا دين عن الانجراف إلى الهاوية في تخليد وتأبيد.

ومن هو أسعد الناس في تلك الكلمة؟ من عدل عن الضارِّ وقد عرف ضرره وإن يكن الحياة... حياة الدنيا والبدن عندما يكون الثمن الوحيد لبقائها سعادة الآخرة، والمساومة من أجلها على الدين، وهل تعدل فرصة بقاء قد لا تطول الأيام فضلا عن الشهور والسنين حياة الخلود وفوز الأبد ؟! ومن ضحّى بدنيا تضرّ بآخرته وقدَّم لغده

فهو له مذخور، وجزاؤه به موفور، ومن أخطأ الخيار، وقدّم الهوى على التقوى كان ما ينتظره مرعباً مروّعاً، ولودّ أن بينه وبينه أمداً بعيداً.

وأسعد الناس ـ في النص الثالث ـ بهذه الدنيا التارك للتنافس عليها من أجلها، والإيغال فيها إغراقاً في شهواتها، تفرّغا من هذا الموفّق الرشيد لما هو الأصل في دورة الحياة والهدف منها من التخرّج إنساناً قد اكتمل نضجه عقلاً وروحاً ونفساً، وانطلقت إرادته على طريق الخير والهدى والنّور، والتّقى اللّه العظيم الجليل بعقله وروحه وقلبه، فارتفع قدراً، واطمأن نفساً، وطاب حياة ومنقلباً، ولم يعرف القلق والاضطراب والخوف على المصير، والعقد إليه سبيلاً، ولا الشعور بالإحباط والفشل وخيبة الأمل إلى نفسه منفذاً. وكيف يأسى، أو يذبل أملاً ويفتر في نفسه الرجاء من وجد اللّه وحماه ومدده وهُداه ؟! ماذا وجد من فقدك؟! وماذا فقد من وجدك؟ وهل يفقد من وجد اللّه غنى أو عزّة أو أمناً واطمئناناً وسكينة، أو قوة ونصرة، أو أُنساً وبهجة أو أي خير حتى يقع في إحباط أو يمسّه شعور بخوف أو قلق واضطراب؟ حقّ لمن فقد اللّه لرجس قلبه ودنس روحه أن تحتوشه مشاعر الضعف والقلق، وتنهار آماله، وينهّد منه الرجاء، ويستولي عليه

تشاؤم عميق، ويأس مقيت، وإن وجد غنى عارضاً، وصحة عابرة، وعزّاً ظاهرياً، وقوّة موهومة، وسنداً مما يطلب في نفسه السند.

الواجدون للّه كاملاً مطلقاً لا كامل معه، خالقاً بديعاً قادراً لا خالق من دونه، مالكاً لا مالك سواه، حيّاً قيوماً سميعاً بصيراً عليماً خبيراً رؤوفاً رحيماً شديداً جبّاراً، لا يأتي عليه فناء، ولا يمسّه قصور، ولا يعتري قوّته وسلطانه وهن، ولا يشوب قدرته ضعف، وأنّه الجواد الكريم الحنّان المحسن الذي لا يُخلف وعده، ولا يُمنع رفده... الواجدون للّه ممّن يعيشون رؤيته كذلك عقلاً وقلباً وروحاً وملء المشاعر وجنبات النفس ومنعطفاتها وجميع أقطارها وأبعادها؛ رؤية لا تغيب، ولا تقيم، ويجدون أنفسهم على طريقه، وقلوبهم مليئة بحبّه، وأرواحهم متعلّقة برجائه، وهممهم متوجّهة إليه، وخطاهم في سبيله؛ كيف لا يكتفون، ولا يفنون، ويقوون، ويثقون، ويأمنون، ويأنسون، ويهنؤون؟! هؤلاء هم السُعداء في الدنيا، السُعداء في الآخرة الذين سعادتهم معهم أبداً تنبع من نور أنفسهم التي تنوّرت بنور اللّه، وأشرقت من عطائه حتى صارت تشعّ على الأقاصي من المكان والزمان.

أسعد الناس من لم يجتذ به التنافس على الدنيا، على زخارفها استغناء بوعد اللّه الجميل، وانشغالاً بلذة رضوانه،

ووعياً منه للوظيفة الكريمة في هذه الحياة، بل أسعدهم من ضحّى بها جملة وتفصيلاً، وبكل حذافيرها، وحتى النفس والنفس الأخير منها لو بان من الدنيا أنّها تخادعه يوماً ما على دينه، وتساومه عليه بأنّ إما حياة بلا دين، أو دين بلا حياة، وموتٌ تطلعاً لما عند اللّه وعشقاً للقائه.

طريق واصل:

كلما كبر الهدف تطّلب همة أكبر، وجهداً أكثر، وإرادة أقوى، وعزماً أمضى، والسعادة هي أكبر هدف لا تطرق على النّاس أبواب منازلهم ليجدوا أنفسهم سعداء فجأة، ومن دون جهد مبذول. إنما هي قمّة بعيدة شامخة لا ترتفع إليها قمّة، والتسلّق إليها لا يصبر على كلفته إلاّ قليل. ومع بذل الجهد، وارتكاب النصب لابد من التوفيق. وهو لمن سعى، وكان في سعيه مخلصاً، ولربه العظيم كادحاً قاصدا. ولن يجد الناس بديلاً عن منهج من صُنع اللّه يصوغ حياتهم ويربّيهم ويحكم علاقاتهم يقع طريقاً موصلاً للسعادة، محقّقا لهدف الحياة، نائياً بها عن الأزمان العصيبة، والمشكلات الحادّة، والإنهيارات الخطيرة، والانقسامات المدمّرة.

الإسلام كتاباً وسُنّةً، أساساً عقيديّاً وبُنىً فوقيّة تشريعية وغير تشريعية منهج متكامل متين رصين لا ثلمة

فيه، ولا إضافة تنقصه، ولا تقادم زمن يُبليه، ولا تطور حركة يسبقه، وهو كفيل لو طبّق بفهم وأمانة أُطروحة تامّة بتحقيق السعادة للإنسان في معبره من الدنيا، ومقرّه من الآخرة. ومن الجور على الإنسانية هذا التعطيل للإسلام وإقصاؤه وتجزئته، ومن الجور على الإسلام والإنسان هذا التزوير الذي يتعرّض له دين اللّه في صور مختلفة منها أن يُلبس ثوب غيره، ويحمّل نظرات الأرض، وقصور الصباغات الوضعية بخلطه بها وبتصوراتها وطروحاتها مما لا يلبث حتى يتعرى باطله وهزاله. ومن الجور على الإسلام كذلك أن يحوّل وهو مادة حركة وفاعلية وخلق ونشاط وبعث إلى مادة فكرية جامدة ميتة مترفة في صورة بحوث نظرية جدلية لا تلامس مشكلات الحياة ولا تؤسّس لحل قضاياها ومعالجة أوضاعها.

الإسلام يصوغ للحياة أوضاعها ويدفع بحركتها إلى الأمام، ويُنّمي الإنسان، ويحيي الأرض عوناً له على انطلاقته إلى اللّه بعقله وقلبه وروحه، والأبعاد النورانية في وجوده، وليس الإسلام لونا من ألوان الترف الفكري، ولا صناعة جدل من جدل الفارغين، ولا مجموعة من

البحوث المحنّطة التي لا مكان لها إلاّ متاحف التاريخ الذي قد نسته الحياة، وتخلَّصت منه على عمد.

وللسعادة بمعناها العام ركائز مشتركة في منهج الإسلام، لا يتمّ أي لون من ألوان السعادة بمنأىً منها، كما أنّ فيه ركائز خاصة يتطلبها بناء السعادة في جوهرها الحقّ، وبمعناها الأخص، وبعدها الكبير، ومستواها المتقدم.

ولنقف عند هذين النوعين من المرتكزات:

أ ـ الركائز العامّة:

هناك أُسس ومرتكزات تحتاجها السعادة ؛ سعادة دنيا كانت أو آخرة، فتخلّف هذه الأُسس يعني غياب السعادة والانقطاع دونها. والتعلُّق بطلب السعادة دون الأخذ بهذه الأسباب ضرب من الأماني الفارغة، والخيال الخاوي الذي لا غنى فيه، بل ربما عاد على صاحبه بأقسى النتائج، وأضرَّ الآثار عندما يفيق على سرابيته، وفراغ الوفاض من عطاءات الأمل الكذوب.

وإليك بعض هذه الركائز:

١ ـ علم وعمل:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١].

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾[٢].

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣].

«العلم يرشدك والعمل يبلغ بك الغاية»[٤].

«اعملوا بالعلم تسعدوا»[٥].

«إنّكم إلى أعراب الأعمال أحوج منكم إلى أعراب الأقوال»[٦].

العالم بصير مدرك يهتدي الطريق، ويعرف الغاية، ويجيد خطَّة الوصول، ويبلغ النتائج. ومن لا يعلم يعمى الطريق، ويجهل الغاية، ولا يُحسن الوسيلة، وينقطع عن الهدف أو

---

(١) الزمر: ٩.

(٢) التوبة: ١٠٥.

(٣) سبأ: ١١.

(٤) ميزان الحكمة ٧: ٨ عن غرر الحكم.

(٥) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٠ عن غرر الحكم.

(٦) ميزان الحكمة ٧: ٧ عن غرر الحكم.

يزيغ عنه، وغايات الآخرة وبلوغها تحتاج إلى علم، وغايات الدنيا وتحقيقها يحتاج إلى علم أيضاً.

والعلم المنتج هو ما اقترن به العمل واهتدى به. أمّا سراج بلا حركة في ضوئه لا يبلغ بعطشان ريّاً، ولا بجائع شبعا. ومن أعطى ظهره لنور سراجه ؛ لم يبصر طريق سيره، وأوقعته الظلمة في كبواتها، وقادته جهالته إلى خسران مبين. فالعمل يتطلب دائماً إرشاد العلم، وبالعلم يتوفّر على الإتقان الذي لا تتمّ بدونه النتائج، ولا تستكمل الغايات. فالأُمّة تأمر بعمل السابغات ـ الدروع الوسيعة ـ ولا تكتفي بذلك، بل تضيف التقدير في السّرد ـ النسج ـ لهذه الدروع الحديدية، بضبط حلقاتها، وإضفاء طابع الانسجام والتناسق بين أحجامها ومواقعها ؛ ليأتي النسج متيناً جميلاً رائعاً. وهو شيء يستند إلى العلم والخبرة ومراعاتهما في العمل.

وإذا كان الكلام بلا إعراب وهو من دونه بلا إتقان قد يشوّه المعاني، ويسيء إلى المراد، فإن الأعمال حين لا تُعرب، ولا تتقن، ولا تأتي مطابقة لقواعد العلم وضوابطه، ليست أنها تقصر عن الغاية فحسب، وإنّما قد تجرُّ إلى المخاطر، وتتسبب للشدائد والمزالق. والعمل الذي يهدم ضارّاً، ويشيد نافعاً، ويقيم معوّجاً، ويضيف صالحاً هو ما انطلق من العلم، والتزم بمسايرته، ولم ينحدر عن خطّه كلّ الدرب، وكل الانطلاق.

إنّ المطلوب في ركيزة العلم والعمل وجود ثلاثي مترابط: علم، وعمل، واقتران دائم بين العلم والعمل ؛ فلا علم لا يتبعه عمل، ولا عمل ينفصل عن علم، فبالإضافة إلى العلم والعمل مطلوب دائما تفعيل العلم، وعلمنة العمل. وللإسلام رؤية معرفية دقيقة ثابتة في ماهية وسائل المعرفة الصحيحة، والعلم الواصل يمنع أن يَختلط بتلك الوسائل ماهو وهم، وخرافة، ورؤى مريضة، وخيالات كذوبة.

٢ ـ بصيرة عمليَّة:

﴿...فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[١].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّه وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾[٢].

«السعيد من وعظ بغيره»[٣].

تقدّم حياة الناس أفراداً وأُمماً ومجتمعات، وأحداث الأيام والسنين والقرون سجلاً من تجارب الإنسان ومواقفه الميدانية وعطاءاتها ونتائجها غير المنفصلة عن طبيعة تلك

(١) الحشر: ٢.

(٢) آل عمران: ١٣.

(٣) ميزان الحكمة ٤: ٤٥٩، البحار ١٠: ٩٩ بزيادة: فاتَّعظ.

المواقف، وخلفيّاتها، وظروفها ونوع أخلاقيتها، وتشابك العناصر المختلفة الداخلة في تكوين نسيجها، والمؤثّرة من قريب أو بعيد فيها.

وكثيراً ما يستنبط المطالعون المحلّلون من المختصين ذوي الخبرة والتأمل مجموعة من القوانين الكليّة، والقواعد الشاملة ممّا يتصل بعالم النفس، وعالم الاجتماع والسياسة والأخلاق والتحوّلات والاستبدال من تلك المادة المتراكمة. وهذا من البصيرة العلميّة النظرية وصناعتها.

أمّا إقامة الخطى السلوكية، والمواقف المستجدة العملية، على ضوء المستخلص العلمي الدقيق، والتأشيرات العميقة الثابتة لتلك التجارب والمواقف، ولما بين البدايات والنهايات من علاقة العليّة المتينة المكينة، والتحرك العملي في ضوء السنن الإلهية العامّة المدلول عليها بعطاءات تجارب الماضي والحاضر مما تهتدي إليه البصيرة العلمية والفكر المتدفّق فهو من البصيرة العملية التي يحتاجها الناس في ميادين التطبيق ومن الاعتبار، والاستفادة الحياتية من العبر، والتي تختلف عن دقّة الفكر والنظر. ولك أن تقول: بأنّ البصيرة العملية حكمة ورشد في مقام الاختيار، وانقضاء المواقف ؛ والتي قد يكون

الفكر النظري قد قدَّم دراسته بشأنها، وما تنتهي إليه من نتائج. ومن أمثلة هذه الحالة ما يتحدّث به التاريخ عن عمر بن سعد قائد الجيش الأموي يوم كربلاء من وضوح طريق الآخرة والدنيا أمامه، وفقده للرشد العملي أمام بريق الآمال الدنيويّة القصيرة.

ومن فقد بصيرته العملية، وقدرته على الاعتبار، ورشد التطبيق قدّم ؛ المهمّ على الأهمّ، والضار على النافع سفهاً أو على علم، وكأنّ بينه وبين ما قضى به نظرة ما بين السماء والأرض، أو الحاجز السميك الغليظ الذي لا تخترقه النوافذ. فليس عجيباً في حقّه أن يحلّل موقف عمر بن سعد ويلعن اختياره، لكنه يشاركه الموقف وكأنه ينسى خسارة دينه ودنياه.

٣ ـ وزن الذّات:

﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[١].

﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[٢].

«من حاسب نفسه سعد»[٣].

---

(١) القيامة: ٢.

(٢) القيامة: ١٤.

(٣) عيون الحكم والموعظة: ٤٢٤.

في ضوء الرصيد الفطري الأصيل وهو نقيٌّ صفيٌّ في ذات الإنسان، وفي ضوء العقل والعلم وهما نور في حياته، وفي ضوء هدي الدين وهو إشراقه الحقّ في داخله، وفي ضوء الخبرات والتجارب ومعطيات دروس الكون والحياة ؛ على الإنسان أن يزن نفسه ليجد أين هي من موحَيات هذه الأبعاد جميعاً، وتأثيراتها ومقتضياتها ؟ إذ لا وزن بوزن، ولا مقايسة ذات شأن بمنأى عن هذه المعايير وأُسس التقييم. ولا قيمة لذات جانبت فيما بنته من ذاتها، وصاغته من محتوى فيها على الأيام كل هذه الجوانب.

فصاحب الدنيا يحتاج في صناعة نفسه ودنياه إلى هذه المعايير وتأثيراتها بقدر وآخر ؛ فإنّه لو انسلخ بمحتواه عن كل ما يلتقي معها، لم تسعه الحياة في مجتمعات الإنسان لبهيميته وشراسته وشرّه.. وصاحب الآخرة يراها مجتمعة على مؤدى واحد، وتقدّم إراءة واحدة، وتشير برأي متّحد ليس للنفس وهي تطلب سعادتها إلاّ أن تأخذ به، وتلتزم مساره، وهو رأي لا تنثلم به مصلحة دنيا ولا دين، ولا تضيّع على طريقه قيمة بدن ولا روح. فلذّات البدن، ومتع الحياة مكفولة بما ينفع على

هذا الطريق، ورقيُّ الروح وكمالها وأُنسها ليس له طريق سالك غيره.

الفرد والجماعة والأُمّة بلا مراجعة للذات والأفكاروالمشاعر والطرائق وخطى السلوك يحصل لهم الانفلات، والمنفلت عن الصراط يبتلعه التيه، ويشطّ في ضياع عن الغاية.

وأن يزن الإنسان نفسه، فبردّها إلى الخطّ بمقدار ما انحرفت، ويعيد لها من وزنها بمقدار ما فقدت، ويثقّل منه بمقدار ما خفّت، ويدفع بها عوضاً عما قصّرت وتخلّفت ؛ خير له من أن يهمل أمرها فتتفلّت حتى يتعذّر الرد، وتفقد القابلية حتى لا يستعاد لها الوزن. وعندئذ تواجه أقسى الأحكام وأمرّ الآثار، وأشد الإقصاء عن أجواء السعادة دنيا وآخرة، وتتم الشقوة، وتستفحل الحسرة.

والإنسان مؤهّل لأن يزن نفسه، ويقيس قدره، ويقف على خيره وشرّه، فإنّه مطّلع على أمره، خبير بنفسه، وبما هي عليه بصير. يدري موقعه بما ينبغي، وكم هي المسافة التي ابتعدها بذاته عمّا يليق به مخلوقاً كريماً وافر الرصيد في الخير، غنيّاً القابليات، معدًّا بعناية إلهية رحمية لتحمل مسؤولية ضخمة ؛ يعجز عنها كاهل السماوات والأرض على شدة منهما ومتانة.

ولا يفقد بصيرته، وتحتجب عنه ذاته، وتخفى عنه مساوئه وسيئاته إلا أن يتمادى في غيّه كثيراً، ويشطّ عن هدى فطرته على عمد بعيداً طويلاً، حتى يؤول البهيمة التي لا تدري إلاّ عن كرش، ولا تنتبه إلا إلى علف وما انتهى إليه أو ساواه.

٤ ـ حزم وجزم:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّه...﴾[١].

﴿...وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٢].

«إذا اقترن العزم بالحزم كملت السعادة»[٣].

«من لم يقدِّمه الحزم أخّره العجز»[٤].

«اذكر حسرات التفريط بأخذ تقديم الحزم»[٥].

«روِّ تحزم فإذا استوضحت فاجزم»[٦].

«لا خير في عزم بلا حزم»[٧].

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) آل عمران: ١٨٦.

(٣) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٥ عن غرر الحكم.

(٤) ميزان الحكمة ٢: ٣٨٤ عن غرر الحكم.

(٥) البحار ٧٥: ٣٧٠.

(٦) البحار ٦٨: ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٧) ميزان الحكمة ٢: ٣٨٦ عن غرر الحكم.

في البدء نقف معاً على معاني هذه المفردات الثلاث في اللغة: الحزم، والعزم، والجزم.

حزمه حزماً: شدّه بالحزام ونحوه ليُحكّم ربطه. وحَزم الدّابة: شدَّ حِزامها. وحزم رأيه أو أمره، وفيه: ضبطه وأتقنه فهو حازم وجمعه حَزَمة[1].

فالحزم إحكام وإتقان مادي أو معنوي للشيء، فالحازم في الأمر يضبطه ويسدّ ثغراته وخلله، وأبواب النقص الوهن المفتوحة عليه، وكأنّه حازم الحزمة يشدُّها بالحزام والحبل ضبطاً لها ومنعاً من أيّ ابتسار. وحزم الأمر الأخذ فيه بالدقة والدراسة والإحاطة والتمحيص والنظر في مقدّماته ونتائجه وظروفه وسائر ما يؤثر على النجاح أو الفشل فيه، قبل الدخول فيه، والشروع بتنفيذه ليأتي بعد ذلك تامّاً قويما متقنا.

ويأتي الحزم بمعنى الجدّ وتوطين النفس على مشقة العمل والتشمير للأمر وعدم التلكؤ فيه، ومنه قولهم اشدد حيزومك وحيازيمك لهذا الأمر. وذلك بالاستعداد له استعداداً تامّاً للنهوض بحقّه، النهوض الكامل.

وقد يأتي العزم بمعنى الجدّ في الأمر كذلك[2].

(١) راجع في ذلك المعجم الوسيط.

(٢) لاحظ تاج العروس.

وعزم على الأمر يعزم عزماً: أراد فعله وقطع عليه. وقال الراغب عقد القلب على إمضاء الأمر. وقال الليث: العزم ما عقد عليه قلبك من أمر أنك فاعله[1].

ومن هذه الكلمات ما يضمّن معنى العزم مع قصد الفعل، وانعقاد النيّة به عنصر القطع والحسم وحتمية الإرادة وثبوتها. ومنها ما يبقيه عند الحدّ الأوّل، دون أن يضيف بلوغ الإرادة واشتدادها.

وجزم الأمر جزماً: إذا قطعه قطعاً لا عودة فيه. وقال المبرّد: إنّما سُمّي الجزم في النحو جزماً لأنّ الجزم في كلام العرب القطع، يقال: أفعل ذلك جزماً[2].

فالجزم من العزم البالغ الشديد القاطع الذي خلا من الفتور والتردد والمراجعة في الأمر. وهو أعم من أن يكون عن تروّ أو تهوّر، ومن أن يتعلق بفعل أو ترك، وبتعجيل أو تأجيل.

ووقفة مع القرآن الكريم والنصوص الحديثة السابقة في المورد. وآية التوكل التي تقول: ﴿...**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّه**...﴾ تجعل على العبد أن يدرس الأمر ويفرغ من صلاحه، ومناسبة الظروف

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

للإقدام عليه، وأن يتخذ التدابير والاحتياطات المساعدة على نجاحه بعيداً عن العشوائية والاعتباط والارتجال، فإنّه وإن كان الرسول صلى الله عليه وآله غنيّاً بتسديد ربّه سبحانه عن حكمة الآخرين ودرايتهم وخبرتهم ؛ إلا أنه كلّف أن ينظر النظر الموضوعي الكافي في الأُمور من حيث ملابساتها الخارجية، والوضع الميداني لها للوصول إلى الرأي المدروس والقرار الممحّص، وإن كان أُسلوب المشاورة محمولاً على تربية الأُمّة والتلّطف بالآخرين وإعدادهم من أجل مناسبة من النضج الإداري والسياسي الذي يؤهلهم لملء المواقع المختلفة التي يتطلبها صلاح المسيرة بخبرة وبصيرة في ظلّ حكومة المعصوم من النبي صلى الله عليه وآله.

والتوكل على اللّه عزّوجل لا يعفي العبد الأخذ به عن الدور المذكور، كما لا يُغنيه كلّ سعيه وجهده وتدبيره عن التوكل على اللّه، والرجوع إليه.

والتحضير للأمر بدراسته وتقليب النظر فيه، والاستعداد العملي من أجله داخل في الحزم، والتصميم، وقطع التردّد، وقفزة النفس نحو العمل، واستحكام الإرادة من العزم الأكيد الشديد الذي تحتاجه الأُمور ابتداءً واستمراراً لنجاحها.

ونواجه في «إذا اقترن العزم بالحزم كملت السعادة» تركيزاً على أن لا ينفصل العزم عن الحزم، وهو النظر الممعن المدقّق في الأمر قبل الإقدام عليه، والأخذ بكل أسباب نجاحه، وسدّ أبواب الخلل عن أن يرد عليه. فالعزم الذي يترتب عليه العمل، أو العزم بمعنى الجدّ في العمل ومواصلة النشاط والسعي حين لا تكون له خلفية من الحزم لا تؤمن نتائجه، وقد لا تحمد عواقبه «لا خير في عزم بلا حزم».

وإذا لم يكن عزم وجدّ ومصابرة وكفاح ؛ وهو ما يمكن أن يؤدّي إلى النتائج الكبيرة، والثمرات المرجوة، فليس إلا العجز والتوقف والكسل والخمول ؛ وهو ما يورث الحسرة ويعقب الندامة، ويُبقي في الحضيض: «من لم يقدّمه الحزم أخّره العجز» «اذكر حسرات التفريط بأخذ تقديم الحزم»، والحزم هنا يصلح أن يكون بمعنى الجدّ لمقابلته للتفريط والإهمال، وهو جدّ على مستوى حسن التدبير في معالجة الأُمور وتوفّيتها حقّها من النظر وعلى مستوى الجهد الذي تتطلبه والجد الذي تقتضيه.

والتأمل والدراسة والتمحيص للأمر، ومقارنة وجوه النظر فيه ؛ وهي الحزم الذي قد يُعقب رؤية جليَّة ووضوحاً كافياً للأمر في مقدّماته ونتائجه، وما يعتور

الطريق إليه، وما يتطلبه من تدابير واحتياطات ؛ لا يسوغ بعده تردّد في الموقف بعد أن يعطى هذا الوضوح، ويقدّم هذه الرؤية وإنّما هو الحزم القاطع، والقرار الحاسم بالفعل أو الترك، والإرادة الشديدة القويّة بالإقدام أو الإحجام حسبما قضت نتائج الدرس والتأمل والتدقيق من نسبة لاحتمال النجاح والإخفاق، ومساعدة الظروف والأسباب أو مضادّتها لما يرمي إليه السعي، وتستهدفه الحركة، «**روِّ تحزم، فإذا استوضحت فاجزم**».

ومن استوضح ولم يجزم، وبقي متردّداً في الموقف بعد تبين ما هو المطلوب في ضوء نتائج دراسته للأمر وتقليبه للمسألة على مستوياتها المختلفة، وفي أبعادها المتباينة، فهو يعاني من أنحطاط في الهمة، وشلل في الإرادة، وخور في الفاعلية النفسية، فلابد له من أن يولي قوى النفس الفاعلة عناية فائقة، ويطلب إصلاحها بجدّ مضاعف، وإلا كان من ضعفها هذا مقبرة لكل آمالها الكبيرة، وقاطعاً عن كمالها المنشود.

وليس الجزم أن تتحرّك بلا تروّ، وتنطلق بلا استيضاح، أو أن لا تمسك النفس حيث يشير التروّي بالتريُّث، والدراسة بالانتظار. وإنّما الجزم بالمبادرة بالتحرّك في موضعه، والصبر والتريّث في موضعه. فالجزم

قوة النفس على الانسجام مع معطيات العقل والدين والمطالعة الموضوعية للظروف والمقدّمات والنتائج في الموقف العملي بلا تذبذب من منشأ الجبن، أو تردّد الخلل في الضبط، فلا توقف في موضع الانطلاق، ولا إنفلات في موضوع التوقف ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾[1].

ولا تبلغ نفس سعادتها إلا أن تمتلك الإرادة الصلبة التي تأخذ بيد الرجل على طريق الرؤية عند نضجها، وتطلق كل قوى الذات والوسائل المتاحة في مسارها، وتكفها جميعاً عن الفعل عند مُقتضي الترك أو الانتظار.

وإنّما تتربى الإرادة في النفس ويشتدّ عودها بالتصبر على فعل ليس للنفس فيه هوى، بعد دلالته العقل والدين عليه، وعن مشتهى للنفس يمجّه العقل ويأباه الدين، وإنّما يربطها بخطّ الرؤية الصائبة لهذا اللون من المجاهدة والمعاناة والمكابدة.

ب ـ الركائز الخاصّة:

لو أردنا أن تتوفر الإنسانية وبصورة عادلة على القدر الميسور الذي يتَّسع له صدر هذه الحياة من راحة النفس

(١) آل عمران: ١٨٦.

والرضى وملاءمة الأوضاع الصحيَّة والمعيشية والاجتماعية وغيرها مع المتطلبات الدنيوية للإنسان في حدِّها غير المبالغ فيه ؛ لما أمكن أن نُحقق هذا المطلوب إلاّ بمقدار ما تقترب طرائقنا في الحياة وأوضاعنا بعد تفكيرنا ومشاعرنا من منهج الإسلام في كلّ ركائزه ومقوِّماته، ومجملاته وتفصيلاته.

ثم إنّ تخريج الإنسان المتكامل المؤهّل بفعلياته الضخمة من ناحية روحية ومعنوية للعيش الكريم، والحياة النقية الراقية الطاهرة في الآخرة لأكثر تطلباً لأن تسير الحياة في الدنيا على خطّ الإسلام، وتقتضي تعليماته وتأشيراته، وأن ينشدّ الإنسان في مسيرته إضافة إلى الركائز العامّة المتقدمة إلى ركائز خاصّة داخلة في مقوّمات المنهج الربّاني لتخريج الإنسان الصالح لحياة الأبد بمستواها الرفيع الفريد، وأجوائها المعنويَّة الشفّافة الخالصة، ومختلف أوضاعها الهانئة الراقية، التي لا يمكن أن تتسع لها هذه الحياة، أو ترقى إليها بحدّها.

من هذه الركائز:

١ ـ الإيمان باللّه:

﴿إنّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾[(١)].

«**بالإيمان يرتقى إلى ذروة السعادة ونهاية الحبور**»[(٢)].

«**عصم السعداء بالإيمان، وخذل الأشقياء بالعصيان**»[(٣)].

«**ما أعظم سعادة من بوشر قلبه ببرد اليقين**»[(٤)] !

الإيمان باللّه إيمان بالجمال المطلق، والجلال اللا محدود، والكمال اللا متناهي، وتجاوز من العقل والقلب والروح لكلّ محدود للارتباط أوّلاً وبالذات بالواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، والاعتماد عليه، والاستمداد منه، والانشغال بطاعته وذكره، والترقي على خطّ السير إليه معرفةً تصوغُ الذات بنور هداها ذاتاً من مستوى الملائكة أو يفوق.

---

(١) العصر: ٢ ـ ٣.
(٢) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٠ عن الغرر.
(٣) ميزان الحكمة ٤: ٤٦١، عن الكنز، خ ٤٤٢١٦.
(٤) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٥، عن الغرر.

إنّه بقدر ما يصدق الإيمان، ويتركّز، ويتجذّر، ويمتد لكلّ أبعاد الذات الإنسانية وآفاقها تشرق النفس، وتسمو ذائقتها، ويجلُّ قدرها، ويكبر وزنها، وتعلو منها الهمة، وتتحرّر الإرادة من أثقال الطين، فتلتزم خطّ الجمال، وتواصل العروج ما استطاعت مسترفدة من اللّه هدى ونورانية وكمالاً.

ومن آمن باللّه، وشعّ قلبه بمعرفته ؛ لم يترك له إنبهاره بجمال ربّه وجلاله إلا أن يطلب المزيد من معرفته، والأنس الغامر بالتعلّق به، والفوز الكبير بمرضاته التي لا تكون إلا في تكميل الإنسان ذاته، وتنقية روحه، وتزكية نفسه في ضوء ما تولَّه به من أسماء اللّه الحسنى وصفات جماله وجلاله، مما يجوز النفس الإنسانية في دائرة امكانها أن تقتبس منه، وتتحلى بقدرها من عطاءات أنواره.

وأين من رأى الكون وجوداً منفلتاً، والحياة وليدة صدفة، وأنّه لا هيمنة لحقّ ولا عدل، ولا مرجعية لخالق مدبّر عليم حكيم قدير، وظل أعمى لا يرى جمالاً ولا جلالاً، من تلك الصناعة للذات، والتربية للنفس، والعروج إلى الكمالات ؟.

لكن أليس الإيمان من أُمور الوجدان، والوصف العارض على النفس التي قد تجدها تغنى به، أوّلاً تغنى، من دون أن تكون للإنسان فيه حيلة، أو يمتلك إليه وسيلة؟!

بلى، إيماننا لا تصنعه أيدينا صنعاً مباشراً، ولا تمتلك إرادة العبد أن تخلّقه في القلب، أو أن تقذف به فيه من خارجه. وشأننا في ذلك هو شأننا المتمثّل في موقفنا العاجز، من إنشاء الحياة في النبات، ومدِّها بالاستمرار، وإن كنّا قد نساعد في تهيئة السقي له والسماد.

فالإيمان له منابع ومنابت في داخلنا، وأبواب ومداخل من خارجنا. والإنسان قد يبقي على منابع الإيمان في نفسه مما تغنى به فطرته، ويحافظ على منابته المتأصّلة في ذاته مما يلازم خلقته. وقد يعمد بسوء اختياره إلى التعكير على منابع الإيمان فيه وطمرها، وإلى تلويث منابعه وتسميمها، وإبقاء منابع الإيمان ومنابته في النفس ثرّةً قويّةً، بالإبقاء على سلامة الفطرة وعدم المقاومة لهديها ورشدها، فَأَفْسَدُ ما يفسد الفطرة خبائث الأفعال، وخبائث القصود، والتمرّغ في مستنقعات الرذيلة والشهوة، والمكابرة بعد المكابرة للحقّ في أيّ من صوره وموارده، والتمادي في الجدل بالباطل، وتلويث القلوب بالغلّ

والحقد والحسد، وسيء الشعور ممّا يتجه إلى الكيد والإضرار بأبرياء الناس وسائر المخلوق.

كما قد يبقى الإنسان على أبواب الإيمان ومداخله للنفس مفتوحة، فيصل القلب منها الكثير من نور الإيمان، ممّا تشعُّ به آيات اللّه في الآفاق والأنفس، وتزخر به إنارات الرسل والكتب وهدايات المبلّغين.

وقد يُوصد هذه الأبواب المشرَّعة، والمداخل السالكة بمداخلة أهل السوء، وممازجة أهل الباطل، والتلهّي بتوافه الأُمور وسفاسفها، والركض وراء الشهوات ومساقطها حتّى يعود البهيمة التي لا تملك تأملاً بفكر، ولا تدبراً بنظر وراء ما يقع تحت الحسِّ القريب، وفي اللحظة الحاضرة. وإذا تعدّى عن ذلك لم يتجاوز الاشتغال بتعديل وتطوير آلة معاشه، وتكبير أدوات بطشه، ومدّ سيطرته وعدوانه، وتوسعة بغيه وسلطانه.

ولو أبقى الإنسان على منابع ومنابت الإيمان في نفسه، ودروبه ومداخله إلى قلبه ؛ لوجده المؤمن الذي يعمر قلبه بالإيمان، المطمئن الذي يصدّق عقله باللّه وما أنزل، وتزخر روحه بالهدى، وتمتليء نفسه بالتقوى.

ولو فتح سمعه وبصره على مدرسة الكون الكبرى في بُعد الآفاق وآياتها، وعمق الأنفس وأسرارها، مبقياً

فطرته على ما كانت عليه من صنع اللّه في صفائها ونقائها، ومالها من قدرة على استقبال التأثيرات الروحية، والإيحاءات المعنوية، ودروس الهداية والاستقامة وتربية الوجدان الخلقي ؛ لرأى من إيمانه النمو والسمو، والتركز والعمق، وشعر في ظلّ ذلك بالإلتذاذ والانسجام والتوافق.

إذن مسألة الإيمان داخلة بمقدّماتها في فعل الإنسان بقدر مؤثّر، وواقعة ضمن مسؤوليته وأمانته، بعد أن كانت منابعها القائمة في نفسه، ووسائل نموّها المتاحة له، يطالها سلطانه وإرادته أعمالاً وإهمالاً، وتنشيطاً وتعطيلاً، وإثراءً وتجفيفاً.

إنّ للإنسان من مراتب روحه ما يقدر به على التصرف في معلوماته بالتحليل والتركيب واستنباط الجديد، والتوصل إلى المبتكر النافع من حصائل الأفكار بالموازنة والمقارنة، والسير من المقدّمات إلى النتائج. كما أنّ له مستوى من الروح يتجاوز به ذلك، ويربطه بعالم الغيب والملكوت، ويُريه من الحقائق الكبرى والمعارف الجليلة التي تقود حركته في الحياة إلى أمان، وترتفع بها إلى علوٍّ، وتنتهى بها إلى وجود حميد سعيد، خالد في الخالدين، هانيء في الهانئين.

معارف تشعُّ بها الروح، ويسطع بها القلب، وتزكو لها النفس، ويطهر الضمير، وترفع الهمَّة، ويستقيم السلوك، وتتصحّح الذات كلّ الذات، وترقّ المشاعر كلّ المشاعر، وتغمر الطمأنينة والأنس كلّ الجنبات، وكلّ اللحظات...

معارف أوّلها التوحيد ورؤية جليل من جمال اللّه الذي لا يحدّ، وجلاله الذي لا يتناهى، وعظيم من إشعاع عظمته وأسمائه الحسنى ممّا يُنسي كلّ جمال، ويفوق بلذته كلّ لذة، ولا يكون معه يأس ولا قنوط، ولا خوف ولا حزن، ولا قلق ولا اضطراب، ولا وحشة ولا ضياع، ولا فقر ولا احتياج.

بلى تتجلى روح الغيب والإيمان في الإنسان بإيمانه الصادق الثابت العميق الدائم بالتوحيد، وما يؤذي إليه من آثار اعتقادية، ومشاعر طاهرة، وقصود سليمة، ودوافع كريمة، وحركة قويمة، وعمل صالح، وسعي رابح، وإعمار وإحياء متواصل، يأتي على اليد المؤمنة تعبيراً صادقاً عن السير التكاملي داخل الذات الإنسانية، والترقّي المتصل في معراج الكمال، في سفر معنوي جادّ صاعد لا ينقطع، تعيشه روح الغيب والإيمان في رحلتها المستمرة على طريق الكمال الإلهي الذي لا يحدُّ؛ مستعطية حياة

أسمى، مسترفدة نوراً أكبر، مستمطرةً رحمةً أعمّ، وأغزر، وأدوم.

٢ ـ العمل الصالح:

﴿إنَّ الإنسَانَ لَفي خُسْر* إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات وَتَوَاصَوْا بالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْر﴾[(١)].

﴿ مَنْ عَملَ صَالحاً من ذَكَر أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً...﴾[(٢)].

﴿مَن كَانَ يُريدُ الْعزَّةَ فَللَّه الْعزَّةُ جَميعاً إلَيْه يَصْعَدُ الْكَلمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ...﴾[(٣)].

﴿إنَّهُ لَيْسَ منْ أَهْلكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالح﴾[(٤)].

«السعيد من أخلص الطاعة»[(٥)].

«لا يسعد امرؤ إلا بطاعة اللّه سبحانه، ولا يشقى امرؤ إلا بمعصية اللّه»[(٦)].

---

(١) العصر:
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) فاطر: ١٠.
(٤) هود: ٤٦.
(٥) ميزان الحكمة ٤: ٤٥٩ عن غرر الحكم.
(٦) ميزان الحكمة ٤: ٤٦١ عن غرر الحكم.

صاحب العمل الصالح هو الرابح في الإسلام دون من ساء عمله، ﴿...**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...**﴾، وهو الرفيع قدراً، ﴿...**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...**﴾، وإنه السعيد الموعود بأنه يحييه اللّه حياة طيّبة، ﴿... **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾، السعيد من أخلص الطاعة وإخلاص الطاعة للّه، والأخذ بما أمر، وكيفما أمر؛ وهو ما يكسب العمل وصف صلاحه، ويجعله السديد القويم على الإطلاق.

ومن كان عمله غير صالح فهو ليس بصالح، والمحصّلة النهائية لحياته الخسران والبوار ﴿**وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...**﴾، ﴿**قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾، وهو المطرود من رحمة اللّه، والملعون الساقط، إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح، وهو الممقوت الشقي، العصيّ القصيُّ عن مواطن السعادة، ومنازل السعداء، ولا يشقى امرؤ إلاّ بمعصية اللّه، وطريق المعصية له سبحانه طريق العمل الطالح، والفعل السيء، والممارسة الضارة الساقطة.

ويوجد تعاط إيجابي عميق، وعلاقة تبادلية على مستوى التأثير والتأثر ثابتة ومستمرة بين الإيمان والعمل الصالح.

فالإيمان وهو رؤية يقينية تزهر بها كلّ مراكز الإدراك والشعور المعنوي عند المؤمن، لتكون منطلقا لسلوكه وموجّهاً لمواقفه وممارساته. فحيث إنّ هذا اليقين يُرى العبد من جمال ربّه وجلاله ما يأخذ بأقطار نفسه، ومن قدرة بارئه ومدبّره ما يجعل مهابته منه لا من غيره، ومن لطفه ورحمته ما يجعل طمعه ورجاءه فيه، لا في من سواه. وهذا توحيد في الشعور، يتبعه توحيد في السلوك. وتوحيد العبد الناقص ربّه الكامل في عالم الشعور والسلوك قاضٍ بالمجاهدة من أجل التخلّي من أيّ قبيح، والتحلّي بكلّ جميل أداءً لحقّ العشق، وطلباً لرضى المحبوب. فالتخلّي عن سوء العمل، والتحلّي بالصالحات نتيجة حتمية لروح الغيب والإيمان الحيّ الفاعل النّاشط في الذات المؤمنة.

والعمل الصالح حين يأتي على يد المؤمن استجابة مقصودة واعية من روح الإيمان والغيب في داخله لربّه العظيم، ومن منطلق العشق الإلهي عند العبد، فهو يمثّل تأكيداً لهذه الروح المشرقة، وزيادة في ارتباطها بخطّ

الكمال الذي انبهرت به، وحركة تقدميّة في المضمون الأعلى في الإنسان، قبل أن يكون حركة لجارحة أو أكثر من الجوارح. إنّه يمثّل تجاوزاً من هذه الروح النورانية الطاهرة، في رحلة الذات الإنسانية الصاعدة، لكلّ العوائق والمثبطات والإغواءات والإغراءات والتهديدات والتوعدات التي قد ترتدُّ بعزائم الخير والرقي عن الخطو والعبور، ممّا تفتعله وتثيره العوامل المضادّة لنهضة الذات وسيرها التكاملي من داخل الإنسان وخارجه، وهذه يعني أنّ ماهو بالقوّة من قدرة النمو والزكاة والرقي والتكامل في هذه الروح الشريفة التي يقاس إليها مستوى الإنسان قد تجاوز مرحلة القوّة إلى الفعل.

فإنّ كلّ عمل صالح تنجزه هذه الروح من منطلق عشقها للّه، والاستجابة لإرادته، متجاوزة لتحدّيات الأرض، ونداء التقاعس والانشداد إلى الرغائب المادية والراحة البدنية، التي تثيره الروح الحيوانية في الإنسان لتخفّف به بدرجة جديدة، من ثقلة الأرض، وتتحرّر تحرّراً إضافيا من مدار جاذبيتها ؛ لتعيش وعي الملأ الأعلى ورؤيته، وشعوره وانطلاقته، ومعنويته، ورشده، وأُنسه بمرتبة فوق مالها من مراتب، ودرجة أعلى بما كان لها من درجات، ممّا يلهب الشوق أكثر إلى الكمال،

ويزيد من قدرة السموّ، والتحرّر ممّا يحبس الملايين من الناس في قفص الهمّ المادي الخانق، وزنزانة الأرض العفنة، ويعيق الروح الإنسانية الكريمة عن التقدّم والانطلاق.

فهذه قيمة عالية، ومردود ضخم للعمل الصالح، تحقّقه روح الإيمان والغيب، وهي تمارس عمليّاً قوّة الدفع الفعلي لسائر قوى وآليات المركب البشري ببعده الإنساني، والبعد الآخر على طريق مرضاة اللّه ؛ فيكون لها التفوّق المتجدّد كلّما مارست ذلك على ما قد يكون قد تبقى من عوامل الانحطاط والتخلّف والوهن، التي قد تثيرها شهوات البدن والأجواء البيئية الفاسدة المتردية، ويكون لها الظهور والشفافية والتبلور، والقدرة الأشدّ على الانطلاق في مسارات النور والهدى والكمال والحبور.

ومع استمرار الانتصار والتفوّق لروح الإيمان ـ الروح الأكثر شفافية من بين مراتب الروح في الإنسان ـ تضمر مقاومة الجبهة الأُخرى، وتؤدي الانتصارات المتوالية لتلك الروح من خلال ما تعبّر عنه من مواقف الصمود والعبور للمساحات الملغومة بالأوهام والأضاليل، من إثارة داخل الإنسان وخارجه إلى اشتداد شعلة الإيمان، وارتفاع مستوى الرؤية للحقّ والحقيقة، واتساع الآفاق

الداخلة في تلك الرؤية من عالم السرّ والملكوت. وهو مستوى من العلم والعرفان يحمي بدرجة أكبر بإذن اللّه من النكوص والارتداد، ومن الضعف والوهن في غلاظ المواقف، ومضائق الأزمات: «.. **ومن اعتصم باللّه بتقواه عصمه اللّه**»[1]، «**بالتقوى قرنت العصمة**»[2].

إنّ الظروف الحادّة المعاندة من الخارج، والدوافع المكابرة المضادّة من الداخل، والتي قد تحيط بالعمل الصالح، وتشكّل مقاومة عنيفة تحول دون مضائه يمثّل عقبة أمام النفس فتمنعه من قطع المسافة إليه، وتُقيم جداراً شاهقاً يمنع من الوصول إلى تحقيقه ؛ فحين تقفز روح الإيمان الفاعلة بصاحبها الحواجز الرفيعة السميكة، وتخترق موانع الطريق لتحقيق نيّة الخير على أرض الواقع؛ تحمَّل البدن ما تحمل، وكانت الكلفة ما كانت، وذلك من أجل اللّه، تكون قد حقّقت تقدّماً على الطريق إليه، وأكسبها موقف الصمود من منطلق الوعي والرشد والهدى تمكيناً لدورها في قيادة الذات بما لها من بعد أكبر على طريق الصنع الخيّر لها، والتحرك في الاتجاه الصحيح، وتكون قد تهيّأت لمعرفة جديدة أكثر تقدّماً

(١) البحار ٦٧: ٢٨٥ ح ٨.

(٢) ميزان الحكمة ٦: ٣٤٣ عن غرر الحكم.

لشأن اللّه وقدسه، وأكثر انفتاحاً على جماله وجلاله دون أن تحيط بكنه ذاته، وبعظمة أسمائه، وباللا محدود من أنوار كماله.

فروح الغيب والإيمان وهي الأسمى من بين مراتب الروح في الإنسان، أمامها مراحل من النموّ، ودرجات من نعمة الحياة والتفتّح والسعة والانطلاق والإلتذاذ. فهذه الروح على اختلاف أفرادها في مديات الاستعداد، قد أودعت من قابليات النضج والنهوض والتحليق ما يعتمد تفعيله أُسلوب المجاهدة من أجل أن تبلغ الذات كمالها المقدور على طريق معرفة اللّه، وتلقّي فيوضات رحمته، فهي تترقى في درجات صحوتها وتفتّحها، وتنتقل في سيرها التكاملي من حياة إلى حياة أوفى وأكثر حيوية، وأغنى بالنزاهة والجمال، وأوفر نورانية، وأغزر بالإلتذاذ، عبر المجاهدات العملية المتصلة الصبورة، والإقدامات المتلاحقة الجليلة الجريئة من عمل الصالحات المحفوف بالتحديات، فتتلقى عائد مجاهداتها الكريمة، وإقداماتها المباركة نوراً فوق نور، وحياةً فوق حياة وتَضيف أُنساً إلى أُنس، وبصيرة إلى بصيرة، ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1]، ﴿ **يَا أَيُّهَا**

(١) العنكبوت: ٦٩.

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

فإذا كان المبتغى هو السعادة فإنّ تحققها بأكبر معاينها وأرفع درجاتها إنّما يتم بمعرفة اللّه سبحانه بأقصى ما يمكن أن يتأتى للقلب المحدود ـ على اختلاف الضيق والسعة في أفراده، والتفاوت في قابليات سموّها ـ من معرفة اللامحدود، والتخلّق بخلقه. وهي المعرفة التي يتحملها روح الإيمان، والتخلّق الذي يصوغ الإنسان كاملاً ما اتَّسمت ذاته للكمال، مطمئناً، سديداً خيّراً معطاءً دائماً يكتنف حياته الأنس والرضى، وتغمره السعادة، ويزخر بالرجاء العريض، والأمل الكبير، ممّا يحقّ ويصدق.. لا الرجاء الكاذب والأمل السراب الذي يعقب إحباطاً وحسرة، ويتحوّل إلى يأس كالح، وتشاؤم مقيت.

والطريق إلى تلك المعرفة، وتلك السعادة يمرّ عبر مجاهدة النفس لكلّ سوء يصدّ عن ذكر اللّه، وكلّ خبث يحجب عن رؤيته، ويُسقط القلب عن مقام مناجاته، ونعمة الاتصال به. وإنّ المجاهدة لكلّ ما تحدّث به وسوسة الداخل، وتضليلُ الخارج، والتعلقُ باللّه سبحانه، والاستمساك بحبله المتين لهو ابتغاء الوسيلة... وسيلة

(١) المائدة: ٣٥.

العبودية وتذلّلها وتزلُّفها وخضوعها لعزّ الربوبية. ومن طلب الوسيلة إلى اللّه، وجاهد فيه كما أمر، واتّبع السبيل التي هي أوضح هدي، ووجد اللّه كالئه وحاميه وطبيبه وأنيسه ؛ فكان الفوز والفلاح والسعادة.

فالنفس التي تعيش المجاهدة حقاً في داخلها، وتجسِّد الاستكانة وذلَّ العبودية لربّها، فتخلو من غير اللّه للّه، تتخلص من القبح والشحّ والضعف والهوى والهوان، ومن كلّ عوامل الانحطاط واليأس والقنوط، والخمول والكسل، والخوف والقلق والحزن على الدنيا، فتقوى وتكبر وتعزّ وتأمل وتنشط وتهنأ وتلذّ وتسعد. ومن شأن هذه النفس بهذا المحتوى الإيجابي الضخم أن ينطلق صاحبها في حركة الحياة في الخارج فعلاً جهادياً متّصلا، وبذلاً سخياً وعطاءً كريما، وتغييراً إيجابياً، وتصحيحاً وإعماراً، وتطويراً صالحا، وعلماً هادياً، وعملاً نافعاً.

فواقع الحركة الجهادية التي تخوضها النفس هو مواجهتها لعوامل الضعف والجهل والزيغ في داخلها ممّا يغرزه الداخل، أو تتلقاه من الخارج، وما تبذله على الطريق إلى اللّه من مقاومة لتلك العوامل تستوجب به من ألطاف ربّها ورحمته وعنايته الخاصّة، ما يحقق لها النصر والتفوّق على مستوى الإدراك والشعور والعزيمة

والتصميم على الخير، وتحمُّل كلفة الطريق من ذات الشوكة، مع توفيق وتيسير على مستوى المقدّمات والأسباب في حركة الخارج.

أمّا المواقف العملاقة في الخارج ممّا تشيده الجهود المضنية للإنسان، ومواصلة طريق العطاء والبذل، ومضاعفة الكدح من أجل خير الحياة وتقدّم المجتمعات؛ فهو أثر للانتصار في معركة الداخل. وإنّ حجم المواقف في الخارج، وخلوصها من نيّة السوء والتطلّع لما في يد الآخرين، فحجمه من حجم تفوّق الروح الإيمانية وتفتّحها واشتدادها، واستمراره باستمرار هذا التفوّق والتفتح والاشتداد.

والنفس التي تعزم وتحزم وتجزم متوثبةً لفعل الخير متوجهةً إلى اللّه سبحانه يكفيها هذا الإخلاص والجدّ في داخلها لأن تتقدم خطوات ثابتة وموفّقة على طريق النموّ والزكاة، وتتوفر على مردود فعلي من الانشداد، وبدرجة أكبر بخطّ اللّه، وأن تكسب طهراً مضافا، وشدة أقوى في الحقّ ؛ وإن لم يتمّ لها العمل الجوارحي لغلبة الموانع في الخارج، ذلك لأنّ ما به بناء الذات، وهو هيمنة القوى الخيّرة فيها في مواقع القرار قد حصل، وإن كان في المعاناة الخارجية ومعالجة الأُمور الصعبة ومكابدتها زيادة

امتحان للذات ؛ ومدى أهليّتها للاستمرار على الدرب الذي لو كان لعنى تصاعداً بالفعل في كمالها وناجز مالها من قدرة وهدى وصحوة ومتانة.

ونقرأ ما يثير هذا الفكرة في مثل هذين النصّين «**إنّ العبد لينوي من نهاره أن يصلّي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت اللّه له صلاته، ويكتب نفسه تسبيحاً، ويجعل نومه عليه صدقة**»[1]، «**النيّة الصالحة أحد العملين**»[2].

٣ ـ رؤية بعيدة وطموح كبير:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[4].

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[5].

﴿وَلَلاخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾[1].

---

(١) البحار ٦٧: ٢٠٦ ح ١٨.

(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٢٨٠ عن غرر الحِكم.

(٣) الملك: ٢٢.

(٤) الأنعام: ١٠٤.

(٥) الكهف: ٤٦.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

«الأمل رحمة لأُمّتي؛ ولولا الأمل، ما رضعت والدة ولدها، ولا غرس غارس شجراً»(٣).

«الأمل سلطان الشياطين على قلوب الغافلين».

«انقطع إلى اللّه سبحانه فإنّه يقول: وعزّتي وجلالي لأقطّعن أمل كلٍّ من يؤمّل غيري باليأس».

لقد منّ اللّه تبارك وتعالى على الإنسان بأن خلقه ناهضةً قامُته، مرفوعاً جبينه، تمكيناً له من أن يرمي ببصره مديداً، ويصعّد بنظره بعيداً، يرى من الدرب ما امتد، ومن المسافات ما بعد، ويلتقي بنظره الآفاق والسماء والنجوم والكواكب، وأمدّه بعلم حتى كان له من ذلك آلات يبلغ رؤية المحسوس في مسافات تبلغ من سنيّ الضوء ما حسابه بالملايين، ليكون من علم الحسّ الكثير الذي يتناسب ودوره الفاعل في صياغة حضارته على الأرض، ويكون مقدّمة بيده لعلم أبعد مدى، وأوسع اُفقاً وأجلّ قدراً ممّا يجد له وسيلة من عقله وقلبه وما اجتمع لهما من حسّه. هذا العلم الذي يقضي بالحاجة إليه دوره الخلافي

(١) الضحى: ٤.

(٢) الحجر: ٣.

(٣) ميزان الحكمة.

الـضخم الـذي يتجـاوز الحركـة الإنمائيـة الرشـيدة فـي الأرض إلى بناء الأنفس والعقول والأرواح، إثراءً للوجـود الإنـساني، وبلوغـاً إلـى أقـصى درجـات نـضجه ووعيـه وصلاحه وهداه وكماله على طريق اللّه العليّ العظيم.

ولـو أكـبَّ الإنـسان فـي دروب الحـسِّ بوجهـه إلـى الأرض ما كان له أن يتوفّر من علم الحسّ علـى مـا تـوفّر عليه ممّا يتصل بالأرض فضلاً عمّا يتصل بفضاءات كونية شاسـعة ومجـرّات وكواكـب ونجـوم، ولعـاش فـي غربـة موحشة في محيطه الكبير من حيث جهله بالكثير مما يعجّ به هذا المحـيط مـن أنـواع الموجـودات حيـاً وغيـر حـيّ، ولفقد القدرة على التعامل الصائب مع البيئة الواسعة، وهـو حبـيس رؤيتـه الـضيّقة التـي تقـرب فـي مـداها مـن خطـو القـدم. والمكـبُّ بوجهـه إلـى الأرض يكثـر منـه العثـار، وتتهدّده المخاطر، ولا تستبين أين تقـع منـه الغايـة، وأيـن يكون منه الهدف.

علـى أنّـه مـا مكـبّ بوجهـه إلـى الأرض فـي دروب الحـسّ، بمثـل مكـبّ بقلبـه علـى الحـسّ فـي دروب هـي للمعنـى. فـأين ذاك مـن هـذا مـصيبة وفجيعـة وخـسارةً ؟! وهل خـسارة بـدن تـساوي خـسارة روح ؟! وهـل تـضارع مصيبة في ما يذهب مصيبة في ماهو بـاقٍ؟! أو مـن القائـل

بأنّ تلف نعمة قليلة مشوبة يُقاس بتلف نعمة كثيرة غزيرة خالصة مرغوبة ؟!

إنّه ولئن كان الإنسان يجني كثيراً من العلم والخبرة لو مشى على الأرض قويماً، واستعمل رسوله من البصر لينقل إليه حقائق الحسِّ التي يقيم عليها تقديراته ومواقفه في تعامله مع الخارج، ويستمدّ منها بمقارناته وموازناته، وتحليلاته وتركيباته واستنتاجاته الفعلية، أفكاراً بكراً، وقضايا جديدة، ويستخلص قوانين عامّة، تعينه على التحكّم بمقدار في ظروفه المادية، وتطوير صيغ معاشه ودوائه ومركبه ومسكنه ووقايته وعلاجه واتصالاته وزراعته وصناعته، ومختلف مرافق حياته ؛ خاصّة وهو يتوفر على القدرة العلمية للتوسيع بالآلة من مدى إبصاره، والمدِّ من حدود رؤيته، حتى صار له من إدراك المحسوسات أن يذهب بعيداً بعيداً، وينال الضئيل الدقيق من خلال مناظيره المصنَّعة مكبّرة ومقرّبة... لئن كان الإنسان يجني هذا كلّه إذا أطلق البصر إلى أقصى مداه، ويجني إليه ما يشبهه إذا فتح سمعه الأوّلي والمكبر صناعة إلى أبعد امتداد ؛ فإنّه قادر أن يجني ما هو أهمّ وأسمى، إذا أرسل بصيرته، وعين قلبه وسمعه على مسافات المعنى الشاسعة، وآفاقه الممتدة، بما للبصيرة من مدى وهو

طويل مديد، وبما لعين القلب وسمعه من انطلاق وهو بعيد سديد. وإنّه لمدى هو أطول من كلّ مدى لأبصار الحسّ وإن وسعها التصنيع، ومدَّ من بعدها التطوير، وإنّه لانطلاق فوق ما لسمع أو بصر أوليّ أو مكبّر مما يدخل في آلات المادة ووسائلها. فوقه قوّةً وشرفاً وعطاءً؛ وإن كان لكلّ دور وموقع في الحركة العلمية في حياة الإنسان.

فإنّ قوانين المادة التي يقف الحسُّ على ظواهرها إنّما تقع في مرمى نظر العقل، لا في دائرة الحسّ على ماهو عليه من صورة فطرية أو متطورة، ويواصل العقل نظره إلى بداية الكون والحياة والإنسان، وما يواجه الإنسان من مصير بعد هذه الحياة، والدور الذي ينبغي أن ينهض بعبئه مادام فيها، والغاية التي ينبغي أن ينشدَّ إليها، ودائرة التصرف التي له أن يتحرّك في تعامله مع الآخرة في حدودها، والضوابط التي عليه مراعاتها وينظر في مسألة المرجعية العامّة الشاملة الدائمة الذاتية لقوانين الكون والحياة والاجتماع وسلوك الأفراد، وما يؤتى وما لا يؤتى في كلّ دوائر النشاط والفعل عند الإنسان.

وهذه قضايا لم تفارق الأسئلة المتعلّقة بها إنسان الأرض يوماً من الأيام بمستوى وآخر، وذلك لتغلغلها في

فطرته، وشدّة الحاجة إليها وعمقها بحسب ما تقضي به صيغة الذات البشرية وأبعاد تكوينها، وما أهلّ إليه هذا الإنسان من امتداد في الوجود ليتجاوز هذه الحياة.

وإذا كان عالم الغيب هو الأصل وعالم الشهادة ماهو إلا شيء من انعكاساته ـ كما هو كذلك ـ وإذا كانت الحياة الأكثر صدقاً وغزارة وهناءة، والتي تكون قائمة أبداً هي حياة تعقب هذه الحياة، فكم سيكون ضرر الإنسان وخسارته لو أقفل قلبه، وانصرف بعقله إلى التفكير في دائرة هذه الحياة مشتغلاً بها وحدها، لا يتجاوزها بتأمل في بداية ولا نهاية، وإن الحَّ هذا الخاطر على نفسه من حين إلى حين، غير آبه بنداء فطرة ولا وجدان ينبع من داخله، ويطلّ به على الهدى الكبير، ولا ملتفت إلى الدلالات المتوالية، والإثارات المتواصلة لآيات اللّه في الكون العريض، وفي أعماق النفوس، وطوايا الأفئدة ؟!

إنّ العقل الذي يسجن قهراً في دائرة الحسّ وشؤونه يحدُّ من نظره كثيراً ؛ فيحرم من الخير القدر الجليل، وللعمى في الرؤية يقع صاحبه في شرّ كبير، وشقاء دائم.

آيات للعقول، وعبر للقلوب ودروس تزخر بها جنبات الحياة والوجود، وتلفت إليها كتب من اللّه منزلة،

ورسل عنه مبلّغون يبشّرون وينذرون، فمن انفتح بقلبه، وأقبل بعقله عليها ؛ فإنّما نفسه بنى، ووعيه أشاد، وبصيرته عمّق ووسّع، وطريق سعادته اهتدى.

ومن انغلق بقلبه، وأدبر بعقله عن أنوار ترسل، ودروس تُبثّ، وعطاءات تفاض ؛ فإنّما نفسه ظلم، ووعيه هدم، وبصيرته خنق وعتّم، وسعادته ضيَّع وهدر.

وكما أنّ عمى البصائر يحرم من رؤية النور، ويقفر الأرواح من الإيمان والاطمئنان، ويسلبها الجمال، ويضيّع السعادة ؛ فكذلك فقد الأمل يقطع على الذات أن تبلغ الكمال، وأن تيمّم صوب القمم.

الأمل مولّد الحركة والعمل ؛ فلا يبني أحد دنيا، ولا يعمّر آخرة، إذا لم يعمر نفسه الأمل، ويخصبها الرجاء. وهذا ما تقوله الكلمة المتقدّمة عن الرسولﷺ: «**الأمل رحمة لأُمّتي، ولولا الأمل ما رضعت والدة ولدها، ولا غرس غارس شجراً**».

ولا ضير أن تشبّ في النفس آمال الدنيا في طول أمل الآخرة تابعةً له، واقعة على طريقه. فطموح الآخرة يمكن أن يولّد طموح المال يستعين به طالبه على طاعة اللّه، وطموح الولد يتقرّب بتربيته إلى اللّه، ويكون له منه امتداد جميل وذكر حسن وعمل صالح، وطموح علم

يبصر به دروب الدنيا فيعمرها بالخير والعدل والحقّ والجمال، لتشعَّ للبصائر بجمال الدين وروعة الشريعة فتكون من سبل الهداية والتقويم بدرجة مضافة، وتسهّل على طالبي الكمال الطريق، ويمكن لطموح الآخرة أن ينبت طموح الموقع، وأيّ طموح آخر يعمر الحياة ويزكّيها، ويحيي النفوس ويطهّرها، ويقضي على الرذيلة، ويدفع إلى الفضيلة... أيَّ طموح يزيد من رفعة الإنسان، ويتقدم بأوضاع حياته من أجل سموّ ذاته الذي لا يتم على مستوى النّوع إلا أن تفيء حياة الأُمم والأقوام إلى دين اللّه، وأن تعلو كلمته سبحانه في الأرض، ويمكّن للخير والحقِّ والهدى في نفوس الأفراد وأوضاعهم، وفي مسيرة الاجتماع.

المشكلة أن يستبدَّ أمل الدُّنيا بالنفس ويقف بها عنده؛ فنراه الكبير على صغره، والدائم على زواله، والقمّة على لصوقه، لو قيس إلى أمل الآخرة وهو أكثر ما يكون في الآمال استطالة وامتداداً.

ولذلك فإنّ الذين يرون الآخرة ويبثّون أملها الكبير ؛ لا يدفعهم على طريق حبّ الدنيا إلاّ ذلك الأمل الذي يُفقد بروعته وجلاله وجماله الأخّاذ آمال الدُّنيا معسول طعمها ومسالها من رونق وبريق.

المشكلة أن تُنسي أهل الدنيا آمالهم القصيرة ـ وكلّ أمل دون أمل الآخرة قصير ـ أنفسهم وقيمتها، ولا قيمة للنفس الإنسانية إلا الجنة، أن تنسيهم ربّهم وعظمته... أن تنسيهم موعود الآخرة وصدقه وغزارته وجلالته وبقاءه ؛ فيظلّوا أنعاماً في الأرض يأكلون ويتمتّعون بلقمة عيش، وكسوة ظهر، وجنس، وسيارة، ومركز وأشياء من هذا المستوى الذي لا يرتفع لقامة الإنسان... أشياء ممّا يغرّ ويمرّ ويضرّ.

المشكلة أن يُلهي الناس أمل الأشياء الصغيرة، والأُمور الحقيرة حتى لا يفيقوا مع الموت إلاّ وقد خلت أيديهم من كلّ شيء إلا الأوزار التي تثقل الظهور، وانكشف لهم سوء ما كانوا يعملون، وأنّ آمالهم الدنيوية التي بدت خضراء في أعينهم كانت تعني في واقعها منقلبا سيّئاً، تشهده النفس يوم تودّع الحياة، وخسارة أبدية، يبدأ مرُّ معاناتها عند مفارقة الدنيا، ويأساً مقيتاً مقيماً، يستحوذ على صاحبه وقت حشرجة واحتضار «**لأقطعن أملّ كل من يؤمّل غيري باليأس**» باليأس الذي قد يعذّب حياة الناسين للّه عزّوجلّ في الدنيا قبل الآخرة وإن أترفوا وتبذّخوا، وكان لهم منها ما يكون. أمّا هم في الآخرة فيأسهم من روح اللّه وهم في جهنّم ماكثون فعذاب ليس مثله عذاب.

إنّ الأمل الحقّ والأمل العظيم صدقاً هو أمل الآخرة التي لا تفرّ، وإنّما للعين تقرّ، ولا تضرّ، بل تنفع وتسرّ، ولا تمرّ، وإنمّا تبقى وتستقرّ. لا يشوبها كدر، ولا يطوف بها طائف همّ ولا غمّ، ولا حتى عابر خوف، أو يأس، أو عبوس فضلاً عن مقيم، ﴿**وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى**﴾، ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾ فدنيا المؤمن لا تفنى بل تخلد بالباقيات الصالحات، وهي محفوظة غير مضيّعة، يحفظها ثواب اللّه العظيم وهو جزيل كريم. الصالحات الباقيات خير ثواباً وخير أملا من كل ما يمكن أن تعرفه الدنيا من جزاء ولذّة وهناءة وأمل. وهذا ليس تقدير من يأتي في تقديره الخطأ وفي أخباره الخلل، بل هو تقدير العليم الخبير. وليس عطاءَ من يخلف الوعد، لنكث أو شحّ أو ضيق يد، بل هو عطاء من لا يتخلّف له وعد، ولا يجوز عليه شحّ ولا فقد. ﴿ **خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ...**﴾.

هيهات أن يقاس أمل دنيا إلى أمل الآخرة !، ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ...**﴾ ، الولد مفارق أو نحن له نفارق، والمال زائل، أو نحن عنه زائلون، على ما في هذا وذاك من مؤونة التعب

والسهر والآلام والضجر مع قلق وفرق كثيراً ما يغلب اللّذة، ويطغى على المتعة.

نعم إذا انشقَّ أمل الدنيا من رحم الأمل للآخرة، وظلَّ يتبعه، ويتّحد معه في المسار، فيثير رغبة العمل، ويضاعف قوّة النشاط، ويذكي روح البناء والإعمار الصالح في كلّ مساحة الحياة، ولمضمون الإنسان، تجسيداً لخطّ الخلافة في الأرض، وفي ضوء ثوابته وقيمه، ومن أجل أهدافه ومراميه ؛ فهذا هو التعبير الصادق عن الإسلام، والفهم الدقيق لما يريد.

إنّ المنهج الإسلامي يثير الحركة، وينشّط السعي بما يعطي التقدّم لأوضاع الحياة، ويضاعف من خيرها وهنائها، وبما يجعلها في الحال نفسه جسراً للآخرة، ومعينا على طلبها. فهو لا يعطّل الدنيا، ولا يهمل الآخرة، ولا يعاني من حال التهافت في التخطيط لسعادتهما. ولا تراه في تنظيماته وتشريعاته، ولا في توجيهاته وأخلاقياته، وفي أيّ بعد من أبعاده يعمر دنيا بهدم الآخرة، أو يعمر الآخرة بهدم الدنيا. دأب المنهج الإسلامي أن يطلب للإنسان سعادة الآخرة، ويأخذ به إلى أن يَخلُص إليها على طريق إعمار الدّنيا، وإشادة أوضاعها في حالة من التشبُّع بقيم الآخرة المهيِّئة لها من عدل وإحسان، وسموّ

وكرامة، ونزاهة من غلٍّ وحقد، وتحلٍّ بروح المحبّة والسلام والانفتاح على مصلحة الغير وخيره إلى حدِّ الإيثار والبذل في الضائقة.

نعم حالةَ أن تنحرف المسيرة عن الإسلام، وتضادَ الأنظمة الوضعية المنفلتة عن مداره بين ما للدنيا وما للآخرة... ما للبدن وما للروح، وتفرض على المؤمن ؛ إمّا حياة بدن بلا روح، وإمّا حياة روح بلا بدن، فلا محالة في الإسلام من تقديم الأهمّ على المهمّ، والأسمى على ما هو دون، فيكون الحفظ للروح ولو على حساب البدن.

وما انقطع أمل الدنيا بالإنسان عن آخرته إلاّ تفه هذا الإنسان بعد وزنه الثقيل، وقدره المرتفع، لأن لا يبقى منه عندئذ إلاّ كتلة لحم ودم وأعصاب، ورغبات بهيمية، ودوافع وشهوات حيوان، وإذا طلب علماً إنّما يطلبه ليهبط به إلى حضيض تلك الدوافع والشهوات، ويجعله مطية إشباع لنهمها. ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾. إنّه أمل الدنيا القصير اللصيق السافل الذي يعقب الندامة، ويؤدّي إلى الحسرة، وينهي إلى بوار وخسار.

وهذا الأمل شيطاني، وآلة بيد أبالسة الجنّ والإنس يصطادون به القلوب الغافلة، والنفوس الفارغة. أمّا القلب

النابه المنفتح على اللّه، الملتفت إلى الآخرة، فلا يسكنه أمل بهيمي، ولا يفعل فيه كيد الشيطان، ولا يستغفله سحره «**الأمل سلطان الشياطين على قلوب الغافلين**»، ذاك هو أمل الدنيا المفصولة عن الآخرة، المضادّة لها، المستغني بها عنها. وهو منفذ الشياطين إلى قلوب الغافلين عن اللّه، وعن أنفسهم، وعن وزن الدنيا، ووزن الآخرة، وعن قيمة الحياة، وأهميّة تجربتها، وما يترتّب على هذه التجربة من نتائج تحدّد قيمة الإنسان إلى الأبد، وتصوغ مستقبله المخلّد.

وللشياطين من هذا المنفذ سلطان على قلوب أولئك الغافلين اللاّهين لهو السائمة، يعبثون بها ويلعبون، ويهزأون ويسخرون. والحقّ أن للسعادة طريقاً واحداً، ألا وهو طريق اللّه الذي يوضّحه دينه، وتحدّد معالمَه شريعته، ويدلُّ عليه رسله وأولياؤه والصالحون من عباده. فمن ركبه نجا، ومن تخلَّف عنه هوى، وليس من سبيل يطلب غير سبيل اللّه لسعادة دنيا أو آخرة. ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾. ولا سعادة في ما لا يقبله اللّه، ولا شقاء في ما يقبله.

والحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيّين والمرسلين محمد وآله الطاهرين المعصومين، وعباده الصالحين.

الفهرس

كلمة المجمع ٧
السعادة كيف نجدها؟ ٩
ماهي السعادة ؟ ١٠
فوارق تفصيلية ١٤
الإسلام والسعادة: ٢١
أ ـ على مستوى الكتاب: ٢٣
ب ـ على مستوى الحديث: ٣٢
١ ـ سعادة الدنيا: ٣٢
٢ ـ سعادة الآخرة: ٣٦
تعارض محلول: ٤٠
طريق واصل: ٤٦
أ ـ الركائز العامّة: ٤٨
١ ـ علم وعمل: ٤٩
٢ ـ بصيرة عمليَّة: ٥١
٣ ـ وزن الذّات: ٥٣
٤ ـ حزم وجزم: ٥٦
ب ـ الركائز الخاصّة: ٦٢
١ ـ الإيمان باللّه: ٦٤

٢ ـ العمل الصالح:.....

٣ ـ رؤية بعيدة وطموح كبير: .....